من مصر الى مصر

رحلة سنة ١٩٠١

ببلاد الاندلس (اسبانيا) ومراكش والجزائر

بقلم

(محمد بك فريد)

(طبعت بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)
« لصاحبها اسماعيل حافظ الخبير بالمحاكم الاهليه »

بسم الله الرحمن الرحيم

من مصر الى مصر

(رحلة سنة ١٩٠١)

بلاد الاندلس (اسبانيا) ومراكش والجزائر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فقد أدت بي خاتمة المطاف . وفاتحة الالطاف . الى قصد بلاد الاندلس لامتع الطرف بمحاسنها الطبيعية . وأزور هاتيك المعاهد الاسلامية . وأرى بعيني مافعل التفرق والانقسام . بالمسلمين والاسلام . وما كانت نتائج اضطهاد الاسپان لمن كان على غير دينهم من مسلمين واسرائليين وكيف ان ظلمهم أودى بمعالم تمدن العرب وطمس آثاره التي كانت تغشي تلك الاقطار الغربية ولم يترك به الا مالا يذكر بجانب ما كان بها من عمارات ومساجد وقلاع وأسوار ومعاقل وقنوات لجلب مياه الجبال الى المدن وغير ذلك مما لا تزال منه بقية مشوهة تشهد بفضل العرب الذين يتهمهم بعض جهلة كتاب الافرنج بالتخريب والتدمير وتشهد آثارهم انهم من أهل البناء والتعمير . فسافرت من القاهرة في صباح يوم الجمعة ٥ يوليه مودعاً الاهل والاحباب وبودي لأودعهم . وبعد الظهر ركبت الباخرة (نيجر) من بواخر شركة المساجري الفرنساوية وفي الساعة ٤ أقلعت بنا بعد ان حضر اليها طبيب المحتجرات لفحص ركابها خيفة أن يكون

من بينهم من يحمل الى أوروبا جراثيم الوباء . ثم فارقها بعد ان جس نبض بعض الركاب ومن البديهى ان مثل هـذا الفحص الظاهرى لا يقى أوروبا شر الوباء ولذلك تجد الاطباء لا يهتمون به لاعتقادهم انه غير مفيد بل لهـذا السبب لم تقرر حكومة فرنسا الحجر على الوافدين عليها من مصر بكيفية بمثل هـذا الكشف البسيط عند وصول المسافرين اليها مالم يصب أحد من بالسفينة بمرض وبائي فيحجر على جميع الركاب المدة المقررة ولا يعتبر الثغر الذى رست عليه السفينة موبوءا وفى ذلك من عدم تعطيل التجارة مالا يخفى .

اني لا أتصدى لوصف السفر فى متسع البحار ولا بما يشعر به المسافر من ألم الفراق اذ قد سبقنى فى ذلك من لا قدرة لى على مجاراتهم فى هذا المضمار وتعد كتابتى بعدهم تطفلا على موائد التحرير والتحبير ولذلك أكتفى بالقول بأني قضيت مدة السفر في سرور وحبور مع من كان معي الاخوان ومن تعرفنا بهم من المسافرين . ثم انتقل بالقارىء مرة واحدة الى ثغر مرسليا وكذلك لا أطيل الشرح فى وصف شوارع هذه المدينة وميادينها وقصورها وبساتينها فقط أذكر باختصار ان أهمها مما يستحق زيارة الغريب هو متنزه البرادو لاتساع شوارعه وكثرة وجود الاشجار والبساتين بجوانبه وطريق البحر المعبر عنه بالكرنيش لان الانسان يمر به بجوار البحر على مسافة بضعة كيلو مترات وتحف به من الجهـة الاخرى القصور الشامخة بها الأشجار العظيمة وسط الصخور المرتفعة . وأخيراً كنيسة العذراء التي يعتبرها أهل البلد ورجال البحر انها حامية المدينة والملاحين في أسفارهم الطويلة . وهي قائمة على جبل عال يشرف على الميناء بحيث يراها القادم اليها قبل أن ترسو السفينة بنحو ساعتين وعلى قمتها تمثال للسيدة مريم العذراء والدة المسيح عليه السلام وهو

من الفضة المذهبة وقد أقيم هذا التمثال وبنيت هذه الكنيسة مما جمع من موال المحسنين . وقد كان الوصول اليها قبل صعباً لارتفاع الجبل القائمة عليه وشدة ميل الطريق الموصلة الى قمته . أما الآن فأصبح الوصول اليها من أسهل الأمور بواسطة المرقى الذي أقيم ملاصقاً للجبل ويصعد الى القبة في نحو دقيقة واحدة بقوة ضغط الماء الا أن المتعبدين الذين يأتون لزيارة الكنيسة ايفاء لنذر أو طلباً لحاجة يصعدون على أرجلهم من الطريق القديم ومنهم من يصعد على ركبتيه زيادة في التعبد بل منهم من لا يكتفي بايلام ركبتيه بهذه الكيفية فيحمل على ظهره صليباً كبيراً ربما بلغت زنته قنطاراً أو قنطارين. ومنهم من يفعل غير ذلك ايلاماً لجسمه واذلالاً لنفسه . أما أنا ومن كان معي من اخواننا المصريين فصعدنا بأخصر الطرق وأسهلها كما لا يخفى .

أما الكنيسة نفسها فليست بالكبيرة الا أنها في غاية الزخرفة والاتقان . ومما يستلفت أنظار الداخل اليها كثرة السفن الصغيرة المعلقة بقبابها وجدرانها ومنها ماهو من الفضة أو الذهب أو العاج أو ماشا كل من المعادن أو الاخشاب الثمينة وكلها نذور للعذراء نذرها بعض المسافرين أو الملاحين في ساعة كان الخطر فيها محدقاً بهم ثم توسلوا بالعذراء أن تخلصهم مما هم فيه فنجوا باذن الله

ومما أستلفت نظري أنا ورفاقي بصفة خصوصية عدد كثير من ألواح الرخام منقوشة عليها بماء الذهب عبارات الشكران وجميل الامتنان مقدمة الى العذراء شكراً لها على نجاة من خطر أو خلاص حبيب من مكروه وعلى أغلبها اسم المنذر وتاريخ النذر وقرأنا من بينها أسماء كثير من أعيان القوم وأشرف العائلات . ومنها لوح مقدم من النساء المستخدمات بمصلحة التلغراف بمرسايا يشكرن فيه العذراء على نجاتهن من الكوليرا التي تفشت بمدينتهن

سنة ١٨٩٦ . ورأينا غير هذا كثيراً من الالواح تشهد بان هذا الاعتقاد غير خاص بطبقة دون أخرى من طبقات الامة بل انه يشملها بحذافيرها لا فرق بين المتعلمين والجهلاء . فالكل امام هذه الاعتقادات سواء . وقد تحققت ذلك عند زيارتي الكنائس في جميع المدن التي مررت بها سواء في فرنسا أو غيرها من البلاد المسيحية الا أن أصحاب المذهب البروتستانتي أقل تعمقاً من غيرهم في هذا الباب بخلاف الكاثوليك فيكاد يبلغ اعتقادهم في والدة المسيح عليه السلام الى العبودية فتجد تماثيلها لابسة أعلى الحلل وأثمن الحلى وعلى رأسها تيجان الماس والاحجار الكريمة وعليها البرانس من الاقمشة المزركشة بأيدي نساء الاشراف بل بأنامل نساء الملوك

ومن الغريب ان الافرنج يرموننا بالجهل لتمسك بعض جهلائنا بالاوهام الباطلة واعتقادهم بتأثير الاحجبة والتمائم مع شيوع هذه الاعتقادات بين أكثر طبقاتهم تنوراً . فهم يغمضون الجفن عن عيوبهم وينظرون الى أقل عيب في غيرهم بالنظارة المكبرة لكن لا غرابة في ذلك فهو أمر طبيعي في الافراد والامم

﴿ العزم على زيارة مراكش والجزائر ﴾

لما قصدت محل كوك بمرسليا المشترى تذاكر السفر الى اسبانيا ورسم الخطة النهائية لسياحتي كان عزمي أن أعود من بلاد الاندلس الى فرنسا عن بلاد البرتقال ماراً بعاصمتها اشبونه وأهم مدنها وبعض مدن شمال اسبانيا .

ثم لما فكرت في الامر قليلاً رأيت ان لافائدة من العودة من هذا الطريق لعدم وجود آثار للاسلام بها ولانها مدن أوروبية أقل بكثير مما رأيته في سياحاتي العديدة فان عاصمة البرتقال لا يمكنها أن تقارن بويانه أو بودابست مثلاً ومن جهة أخرى لايوجد لسكان هذه الجهات عوائد أو ملابس مخصوصة تحسن رؤيتها كما هو الحال في الجهات الشمالية مثل بريطانيا بفرنسا أو هولانده أو غيرها . ولذلك غيرت خط سيري وعزمت على العودة عن طريق طنجه بمراكش بعد زيارة قادس باسبانيا ومن طنجه أقصد المحاط الاسبانية الواقعة على سواحل مراكش الشمالية ومنها الى بلاد الجزائر فأزور بعد مدنها المهمة ثم أعود الى مرسليا مملأً النفس بالعودة الى أقاليم الغرب الاسلامى لتتميم سياحتي بها في فرصة أخرى .

سافرت من مرسليا عصر يوم الخميس على باخرة صغيرة اسپانيوليه قاصداً مدينة برسلونه . وكان برفقتى أخ للمسيو فورشللا الرسام الايطالي الشهير بمصر تعرفت به أثناء السفر الى مرسليا ولما علمت منه انه يقصد التوجه الى (سلامنكا) باسبانيا حيث تقيم زوجته وأولاده عرضت عليه أن يكون لي رفيق سفر الى أن تتشعب طرقنا فقبل ورافقني بمدائن برشلونة ومدريد . وكان لي نعم الرفيق . فله منى على حسن صنيعه وافر الشكران وجزيل الامتنان .

سارت السفينة بكل هدو وسكينة حتى أسدل الليل ستاره فهاج البحر حتى اضطرني لملازمة غرفتي طول الليل ثم هدأ روعه في الصباح وظل صافياً جميل المنظر حتى وصلنا برسلونه فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وكان سير السفينة طول النهار بالقرب من الساحل فكانت هذه الرحلة القصيرة

كأنها فسحة بحرية صغيرة وتعرفت بالمركب بتاجر فرنساوي مقيم ببرسلونة لطيف الاخلاق لما علم بأني أنوي زيارة بلاد الاندلس زودني بجواب لعميل له بقرطبة فشركته على صنيعه ثم زرته في برسلونه فوجدت منه ومن عائلته المديدة احسن استقبال والطف ترحيب —

﴿ مدينة برسلونة ﴾

بمجرد نزولي الى البر قصدت أشهر فنادقها (Grand Hôtel) فأخذت بهأودة على أهم شوارع المدينة واسمه رمبلا (Rambla) وهي كلمة محرفة عن رملة العربية لان هـذا الشارع موصل الى ساحل البحر والرمبلا ببرسلونة كالبولفار بباريس وهي عدة شوارع متعاقبة على خط مستقيم من البحر الى أهم ميدان بالمدينة وهو ميدان (كريستوف كولومب) والرمبلا متسعة جداً يبلغ عرضها خمسين متراً بوسطها طريق يبلغ عرضه نحو عشرين متراً ممـدة لمرور المارّة وبجانبها طريقين للترمواي الكهربائي والعربات وهي محل التقاء المتنزهين والمتنزهات والزحام بها لايقل عن أهم شوارع باريس ٠

وبهـذه المدينـة عدة شوارع أخرى مهمة جـداً أهمهـا (منتزه جراسيا) وهو محل الفسحة يوم الاحد وقد شهدت به يوم الاحد ١٤ الجاري فوجدت به الزحام شديداً جداً والعربات متتابعة متتالية على طول نحو كيلو مترين والترتوارات خاصة بالمشاة الى حد لايمكن تصوره ٠ وعلى ساحل البحر عدة منتزهات لطيفة بها مماشي مزروعة نخيلا على الجانبين ٠ وبها أيضاً بستان

كبير به من الفساقي عدد عظيم وبه محل للاكل تناولت فيه طعام العشاء أول وثاني يوم . وبهذا البستان عدد كثير من أشجار المانوليا ذات الزهرة البيضاء الطيبة الرائحة ووقت مروري بتلك المدينة كانت كلها مزهرة ورائحتها تملأ جوانب البستان وتتعداها الى ماحوله من الشوارع

وفي يوم السبت قضيت الصباح في زيارة أهم الكنائس والآثار . وأهم كنائس المدينة كنيسة القديسه أولاليا (Santa Eulalia) لضخامتها وحسن بنائها وهي من القرن التاسع للمسيح وبها عظام هذه القديسة في قبر من الرخام في غرفة أسفل الهيكل . وقد سمح لي خوري الكنيسة بزيارتها ورافقني الى هذه الغرفة الخصوصية شارحاً لي (بواسطة المسيو فورشللا) تاريخها وكيفية نقلها الى ذلك المكان فاتحفته بشئ من الاصفر (البرونز) الرنان فقبله بكل امتنان . وفي وقت الظهر قصدت قهوة اسمها ميرمار على جبل مرتفع يشرف منه الانسان على البحر والميناء وما بها من السفن وبعد الظهر قصدت محل مصارعة الثيران

وفى صبيحة الاثنين توجهت الى جبل منسرات على بعد ساعتين بالسكة الحديد ويصعد اليه بسكة حديد مضرسة وعلى قمته كنيسة قديمة فاخرة بها تمثال للعذراء يحج اليه القوم من كل فج وبجانب الكنيسة دير متسع به محلات ينزل بها المسافرون ماشاؤا من الايام والليالي بدون أجرة معينة بل يدفعون مايريدون دفعه بصفة احسان للفقراء أولا يدفعون شيئاً ويقال بان المحلات التي به تسع تسعة آلاف نسمة ومن أعلا هذا الجبل يرى الانسان منظراً يشبه مناظر سويسره الا أنه أكثر وحشة وأقل خضرة وماء ثم عدت الى برشلونة الساعة ٥ ونصف مساء

مصارعة الثيران



مهما ارتقى الانسان في سلم المدنية ورقت عواطفه وتهذبت أخلاقه فلا بد من أن تتغلب عليه البهيمية فتظهر في أقبح منظر وأشنع حالة فيميل الى سفك الدماء أو بالاقل الى رؤية الدم يسيل من حيوان مذبوح وتظهر هذه الحالة حتى في الاطفال فانهم اذا وصلت يدهم الى قط صغير أو حمامة أو ماشا كل ذلك تراهم يقبضون عليها من عنقها بعنف فتهلك مالم يتداركها أحد فينزعها من يدهم وتظهر في الكبار بالميل الى الملاكمة أو المبارزة أو مقاتلة الديكة الهندية أو الخراف القوية ذات القرون الحادة

أما في هذه البلاد بلاد اسبانيا موطن تلك الامة التي ارتكبت مع المسلمين من أنواع القتل والحرق والتعذيب مالم ترتكبه أمة قبلها فكان ظهور البهيمية بأبشع مناظرها اذ انا أكبر احتفال لديهم يهرع اليه الكبير والصغير والامير والحقير بل النساء والاطفال مصارعة الثيران وأظن أن هذه التسمية غير كافية وانه يلزم تسميتها قتل الثيران بعد تعذيبها . فتجد في كل بلد من أمهات مدنها مرسحاً أعد لذلك على شكل مراسح الرومان القدماء يسع مايزيد عن عشرة آلاف من النفوس . وكثيراً ماتاقت نفسى لرؤية هذا المنظر مع مافيه من قبح وشناعة حتى ساقنى حب السياحة وميلي الى استطلاع أخلاق الأمم وعاداتها الى زيارة اسبانيا فوصلت الى مدينة (برشلونة) عن طريق البحر في مساء يوم الجمعة ١٢ الجارى على عزم ان أقيم بها يوماً واحداً فعلمت أنه سيحتفل بها في يوم الاحد ١٤ منه بمصارعة الثيران فأخرت سفرى الى مابعد

ذلك حتى أشهد هذا الاحتفال

وفي عصر ذلك اليوم قصدت الميدان أو المرسح المعد لذلك مع زميلي الموسيو فورشللا الذى يحسن التكلم بالاسبانية فاذا به بناء شامخ على شكل دائرة يبلغ قطرها ستين متراً في وسطها المحل المعد للقتال وهو مستدير أيضاً وتحيط به مقاعد على شكل درج وفي أعلاه (لوجات) وبه من الابواب العدد الكافي لدخول المتفرجين وانصرافهم بدون ازدحام . وهذا المكان يسع ١٢ ألف نسمة وبأسفله ثلاثة أبواب أحدها وهو المقابل لمقعد رئيس الحفلة معد لدخول الثيران والثاني لدخول الفرسان والثالث لدخول المصارعين واخراج جثث ما يقتل من الخيول والثيران

ولما أتى الوقت المعين دخل رئيس الجوق راكباً فرساً من أجمل مارأت عيني وتقدم نحو الرئيس (وهو في الغالب أحد أعضاء البلدية) وحياه رافعاً قبعته على حسب عادة القوم ثم عاد ودخل ثانياً وخلفه جميع رجال الجوق ومروا بهيئة لطيفة امام مقعد الرئيس وحيوه بالطريقة المعهودة وأخيراً أتى رئيسهم على فرسه امام الرئيس وطلب منه الاذن بافتتاح الحفلة وطلب منه مفتاح اسطبل الثيران فأذن له وألقي اليه بالمفتاح فتلقاه في قبعته وسلمه الى الموكل بحراسة الثيران لاخراجهم الواحد بعد الآخر

ورجال هذا القتال ينقسمون الى أربعة أقسام: القسم الاول رجاله يحملون ملايات من القماش الاحمر ووظيفتهم التلويح للثور بهذه الملايات حتى يثور غضبه ويهجم عليهم فيفرون أمامه بخفة زائدة ويسيرون فى عدوهم يمنة ويسرة حتى لا يصيبهم الثور بقرونه المحددة .

والقسم الثانى رماحة يركبون خيولاً من أردأ الاجناس وأقلها ثمناً لانها

معـدة للموت لامحالة ووظيفتهم أن يوخزوا الثور برماحهم فيهيج ويهجم عليهم فيحمل الفرس وراكبـه على قرنه ويلقى بهما الى الارض فيبقر بطن الفرس وربما أصيب الراكب برضوض أثناء سـقوطه وكثيراً مايعاود الثور الكرة عليه قبل أن يقوم من سقطته فيصيبه بجراح شديدة أو يذيقه كأس الحمام ٠

القسم الثالث يحمل الرجل منهم فى كلتا يديه حربة ملفوفاً عليها شئ من القماش الملون ويلوح بها الى الثور حتى يهجم عليه فيغرس هاتين الحربتين فى كتفيه ويروغ منـه بخفة زائدة ٠ وبعد أن يغرس فى كتفيه ثمان حراب ويبلغ به الجنون مبلغاً عظيما ويصـير كالوحش الكاسر يتقدم اليـه القاتل وهو من القسم الرابع وبيسراه مـلاءة حمراء وبيمناه سـيف مسلول فيهجم على الثور بقلب ثابت ويلوح له بالملاءة عـدة مرات يبرهن فيها على مهارته في الروغان ثم يغرس السـيف بين كتفي الثور بمهارة وقوة زائدتين بحيث يغور السيف كله فى جسم الثور فيقع صريعاً بعد قليـل وعندها يؤتي بثلاث من الافراس المسرجة لجر جثـة الثور وجثث الافراس المقتولة وقد قتل فى الاحتفال الذى شهدته ستة ثيران وعشرة خيول ولا تسل عما أبداه المتفرجون من الحماسة والاضطراب أثناء هذه المذابح فانهم كانوا يكثرون من التصفيق والتهليل عند مابقر الثور بطن فرس أويرفعه وراكبه على قرنه ويزيدون من الصفير اذا أظهر الثور جبناً أو احجاما أو ظهر مثل ذلك من أحد الخيول كانهم يبشون ويفرحون لرؤية الدم ليس الا ومما أكد عندى هذا الظن انه لما لم يقتل فى الشوط الاخير الافرس واحد علا ضجيج القوم وصراخهم طالبين قتل فرس آخر فأحضر فرس ثان وذبح أمامهم فى المرسح فصفقوا وأظهروا علامات السرور والفرح

ومن الغريب أن عقلاء القوم غير راضين عن هذه المادة البربرية التي تدل على خشونة فى الطباع وجفوة فى الاخلاق لكن الحكومة غير قادرة على ابطالها لتملق الشعب بها ودفاعه عنها بكل قواه



سرقطة

سافرت اليها الساعة سبعة وربع بقطار سريع فوصلتها الساعة ثلاثة بعد نصف الليل أو من صباح يوم الثلاث

وفي صباح هـذا اليوم نزلت من الفندق واسمه بالاسبانية (Fonda) وهي بلا شك محرفة عن العربية فأخـذت أتجول في أهم شوارعها بمقتضي مايرشدني اليه دليل (Joannes) وهو أحسن دليل يفيد المسافر فرأيت بها أشياء كثيرة تذكر السائح بأنها قامت بعربية من ذلك ان أغلب حاراتها ضيقة وبها بوابات سميكة كالتي توجد للآن ببعض حواري مصر وبها شبابيك حديدية كبيرة كشبابيك الاسبلة وشاهدت ببعض دكاكينها مقاطف خوص كالتي ببلادنا تماماً وأهم مافى هذه المدينة كنيستين عظيمتين زرتهما فى الصباح وبعد الظهر تجولت نحو ساعتين فى أصغر الازقه وزرت بيتاً قديماً من بيوت العرب بوسطه حوش تحيط به الاعمدة مثل صحن الجامع وباعلاه بواكى وعلى اليمين سلم بدرابزين من الرخام غاية فى الجمال والبيت مهمل غير معتنى بحفظ مابه من الآثار القديمة

ثم زرت ثكنة للجند بعد الاذن من الجنرال وهـذه الثكنة كانت فى

الاصل سراى لامراء العرب ثم صارت مسكنالملوك (أراغونيا) المسيحيين وأهم مابها من الآثار العربية جزؤ من جامع به القبلة وهو محفوظ لكنى لم أجد به كتابات عربية مطلقاً . وبه قاعات ملوك المسيحيين وقاعة الاستقبال والسلم الملوكى

من حسن حظى ان هذا اليوم كان يوم احتفال دينى يختم بموكب تسير به رجال ونساء بعض الطرق الدينية والشموع موقدة بيدهم ويخرج هذا الموكب من كنيسة سان فيليب وبعد ان يطوف بعض الشوارع يعود الى الكنيسة وقد شهدته مرتين مرة عند خروجه من الكنيسة وأخرى قبل عودته اليها وبآخر الموكب تمثال العذراء لابسة حلة جميلة مزركشة ومحمولة على أعناق القسوس وتحف بها كوكبة من الجند وبعدها الموسيقي العسكرية وبلوك من العساكر البيادة وكلما مر التمثال امام جماعة يجثون على ركبهم على الارض ويرسمون الصليب على صدورهم والقوم هنا متعصبون جداً لدينهم —

والمدينة غير نظيفة وأغلب شوارعها غير مبلطة وبها حارات ضيقة لا يزيد عرضها عن مترين اثنين وقد فتح بها حديثاً شارعان في وسطها لكنهما ضيقين أشبه شيء بشارع الموسكي وبخارجها بعض منتزهات غير معتنى بها وبالاختصار فهى أقل بكثير من برسلونة



مدينة مدريد



مدريد ويسميها العرب مجريط عاصمة ملك الاسبان وأكبر مدنها واقعة في وسط المملكة الاسبانية في سهل متسع يبلغ ارتفاعه نحو الفى متراً عن سطح البحر ولا يوجد حولها جبال أو غابات تجلب الامطار وتلطف الهواء فبردها قارص وحرها شديد وصلتها ظهر يوم الاربعاء ١٧ يوليه آتياً من سرقطة فظننت نفسي في أسيوط لا في القاهرة من شدة الحر وعدم وجود النسيم فيكاد الانسان يختنق من كثرة الحرارة التي تستمر الى ما بعد نصف الليل وقد بلغت درجتها في غرفة نومي الساعة ٢ صباحاً ثلاثين درجة سنتيجراد وهي درجة لا تصل اليها الحرارة في القاهرة في شهر أبيب أو بؤنة ومن شدة تأثير الحرارة على الاسفلت بالميادين العمومية كان عجل العربات يرسم خطوطاً متوازية على الارض بل كانت عصاى تؤثر فيه

وبسبب رداءة فصل الصيف في تلك المدينة تهجرها العائلة الملوكية وجميع العائلات الكبيرة ورجال الحكومة والسفراء الى الثغور الشمالية مثل سان سباستيان وسانتندر أو الجنوبية مثل مالقة ولا يبقى بالمدينة الا من لا تسمح لهم أشغالهم أو ثروتهم بالسفر فيقضون نصف النهار في المنازل ونصف الليل أو ثلثيه بالخارج ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء في الشوارع المتسعة أو المتنزهات العمومية فلا يعودون الى منازلهم الا في الساعة الثانية بعد نصف الليل

وألطف مجتمع في الليل هو البستان العمومى المسمى بون رتيرو (Buon Retiro) وبه تياترو وعدة قهاوى وتصدح به الموسيقي العسكرية

كل ليلة الى مابعد نصف الليل واليه يهرع القوم زرافات ووحداناً من بعد تناول طعام العشاء أي من الساعة ٩ مساء

المدينة فى حد ذاتها لطيفة ولو انها لاتضارع غيرها من العواصم الاوروبية ومركز الحركة فيها ميدان الشمس وبه أهم الفنادق ومنه تتفرع الشوارع العظيمة وأهمها شارع القلعة (Alcala) الواصل الى شارع البرادو وميدان البستان ومنتزه كستايانا وغيره ويكفى للتفرج عليها يوم واحد أو يومين اذ لا يوجد بها من الآثار القديمة أو الكنائس مايستحق اعتناء الغريب بزيارته . وأهم مابها من هذا النوع المتحف الجديد وهو أقل بكثير مما يوجد فى العواصم الاخرى وسراي الملك ومتحف الاسلحة الملاصق له ولذلك فلم أطل المقام بها الا لزيارة المدن القريبة مثل طليطلة ومدينة الاسكوريال التي بها المكتبة الشهيرة

فقضيت عصر يوم الاربع في المرور في أهم شوارع المدينة لاقف عليها بوجه الاجمال ووصلت في طوافي الى سراى الملك ورأيت والدته وأختيه حين خروجهن الى سرائهن الكائنة في وسط المزارع ركبن في عربة يجرها أربعة من جياد البغال ولا حرس معهن مطلقاً . وفي صباح الخميس قصدت سراي الملك مبكراً لاشهد تغيير الحرس الذي يحتفل به فى كل صباح وربما استعرضه الملك بنفسه فحضرت الاحتفال ورأيت الملك حين عودته من فسحة الصباح نحيفاً ضئيلا متشحاً بلباس عسكرى بسيط ولا حرس معه وبعد ذلك قصدت دار الاسلحة فوجدت بها كثيراً من الدروع والخوذ القديمة ومن بينها لباس شارلكان وغيره من ملوك اسبانيا

ومما أحزنني رؤيته ملابس قبودان باشا الدونانمة التركية التي هزمتها

دونانمات أوروبا تحت أمرة دون جوان في خليج ليبانته سنة ١٥٧١ ومصابيح السفن التركية التي أخذت في هذه الموقعة الشهيرة التي كانت من أهم البراهين على ان أوروبا كانت ولم تزل تحاربنا حرباً صليبية تارة بالطعن والجلاد وأخرى بالسياسة والدهاء

وبعد ظهر يوم الخميس قصدت ميدان مصارعة الثيران برفقة زميلي المسيو فورشللا الذي لحقني بمدريد وكان المنظر أشد بشاعة وأقبح رؤية ولذلك عاهدت نفسي على ان لا أحضر مثل هذه المذابح مرة أخرى ثم قضيت يوم الجمعة في الاستراحة المطلقة وفي صباح يوم السبت قصدت زيارة مدينة طليطلة

﴿ مدينة طليطلة ﴾

قصدت زيارة هذه المدينة القديمة لما اشتهرت به من المحافظة على شكلها العتيق ولكونها كانت من أكبر عواصم الاسلام بجزيرة اسبانيا (ولا أقول جزيرة الاندلس لان مدينة طليطلة واقعة فى شمالها بنحو ثلاثمائة كيلو متراً) فسافرت من مدريد فى صباح يوم السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٠١ الساعة ٨ وربع صباحاً فوصلت اليها الساعة ١٠ صباحاً وبمجرد خروجي من فناء المحطة تجلت المدينة امامى على جبل عال يشرف عليها الحصن القديم المعروف بالقصر — وهو الآن مدرسة حربية للمشاة — ويحيط بها نهر التاجه الذي يسميه الاسبان (التاخو) بحيث لا يمكن الوصول اليها الا بواسطة قنطرة أقامها العرب على هذا النهر واسمها للآن القنطرة ويحميها قلعتان

احداهما على اليمين وهي القصر والاخري على الشمال وهي باقية للآن خربتها يد الزمان ٠ وقوض بعض أركانها مرور الليالى والايام ٠ ويوصل الى المدينة طريق نحت فى الصخر بميل شديد لا يمكن الصعود عليه بالمربات الا اذا كان بها أربعة من أقوي الخيول وبعد ان يمر المسافر على القنطرة الحافظة لشكلها العربي ويمر على هذا الطريق الملتف يصل الى ميدان متسع تحيط به عقود على أعمدة عربية قديمة هو مركز المدينة ولا يمكن للمربات أن تتعداه لان باقي الطرق صاعدة نازلة وبعضها على شكل سلم لشدة ميله ٠ والمدينة عربية محضة يخيل للسائح فيها انه في بلاد عربية لو لا مايسمع عن يمينه وشماله من رطانة القوم وبربرتهم

واغلب أبوابها قديمة بها المسامير الحديدية ذات الرؤس الضخمة ويسميها القوم (نصف برتقانة) وبشبابيكها قضبان الحديد وأزقتها ضيقة جداً لا يوجد الآن بمصرنا مايضارعها في الضيق وبها بعض آثار عربية محضة اجتهد القوم في المحافظة عليها واشترتها أخيراً جمعية محبي الآثار للاعتناء بها وهي

(أولاً)قاعة متسعة يبلغ طولها ١٤ متراً في عرض ثمانية امتار وارتفاعها نحو ذلك وسقفها من الخشب دقيق الشغل ومطعم بالعاج وجدرانها وبابها من الشكل العربي القديم موشاة بنقوش عربية من الجبس كالتي بواجهة ديوان الاوقاف بالقاهرة وبأسفل جدرانها ازار يبلغ ارتفاعه متراً مغطى بمربعات من الصيني الدقيق الصنع وبداخل هذه القاعة قاعة أخرى اصغر منها على هذا الابداع

(ثانياً) ثلاث قاعات متسعة في دار متسعة يظهر انها كانت لاحد أمراء العرب في وسطها فناء واسع مستعمل الآن عربخانة عمومية وهذه القاعات

الثلاث ليست بأقل اتقاناً من التي قبلها . وبالمدينة مناثر كثيرة استبدل فيها صوت المؤذن بقرع الناقوس بعد ان صارت جوامعها كنائس

اما مسجد المدينة الجامع فهدم عقب دخول الافرنج اليها وأقيم مكانه كنيسة كبري هى اعظم أثر في المدينة واهم مايراه السائح بها من العمارات وهى مركز اكبر أسقف في اسبانيا . بدأ الملك فرديناند الثالث الملقب بالقديس في عماراتها سنة ١٢٢٧ ميلادية وباشر تخطيطها أمهر مهندسي الوقت . وتم بناؤها في مائتي سنة وبها برج للاجراس ارتفاعه ٩٠ متراً ومن اعلاه يرى الناظر المدينة مبسوطة امامه كأنها خريطة جغرافية وبه عدة نواقيس اكبرها يزن ستة عشر طناً ونصفاً (١٧٥١٥ كيلو جراما)

وطول هـذا البناء الضخم ١١٣ متراً وعرضه ٥٧ متراً وارتفاعه من الوسط ٤٦ متراً وبهذه الكنيسة ٨٣ عاموداً كل عامود مكون من ستة عشر عاموداً ملتصقة ببعضها وكلها من الحجر الابيض ولم يدخل في بنائها قطعة من الخشب كما هو الحال في أغلب الكنائس ان لم يكن في جميعها وينيرها ٧٥٠ شباكا بها الزجاج الملون الذى يمثل بعض المناظر الدينية من أتقن صنع وادق صناعة ويحيط بها اثنا عشر مصلى أو زاوية مخصصة كل واحدة منها لقديس من أكبر قديسيهم أو للسيدة مريم العذراء وفي وسطها مصلى (Chapelle) كبيرة بها قبر عدة ملوك وقبر الكردينال مندوزه (Mendoza) الذي رافق فرديناند وايزابلا حين فتح غرناطة . وبها تمثال شخص عربي يقولون انه تمثل الفقيه الذى سلم الجامع الى الفونس السادس حين أراد هدمه وبناء هذه الكنيسة مكانه خلافاً لعهد التسليم الذى كان يقضى باحترام دين الاسلام وجوامعه .

ولم يقتصر اضطهاد المسيحيين على المسلمين بل تعداهم الى الاسرائيليين

فأكرهوهم على الهجرة أو التنصر وصادروهم فى أموالهم ومعابدهم ويوجد الآن معبدان من أكبر معابدهم حفظتهما جمعية محبي الآثار وهما على الشكل العربي أشبه شيء بالجوامع وكان بهما نقوش جميلة من الجص فأدى تعصب رجال التفتيش الديني (انكيزسيون) الى طلاء هذه النقوش طلاء ذهب بمحاسنها الا أن رجال هذا العصر شرعوا فى قشط هذا الطلاء الحديث لاعادة بهاء النقوش الاصلية اليها .

وبجميع منازل هذه المدينة فناآت تحيط بها الاعمدة الجميلة الشكل وبوسطها الفساقى من الرخام يصب فيها الماء الجارى وحولها أواني الخزف بها أنواع الازهار والاشجار التي تميش وتموفى الظل وأحسن محل بها على هذا الشكل فندق (كستيليا) وهو حديث البناء شيده أحد الاغنياء وصرف عليه (على ماأخبرنى به مدير الفندق نفسه) نحو أربعين ألف جنيه .

ولقد اشتهرت هذه المدينة من أيام العرب بصناعة الاسلحة من الفولاذ وتنزيل الذهب الابريز عليها وبها الآن ثلاثة معامل للفولاذ زرت أحدها فوجدت العمال يشتغلون به على حسب قواعد الصناعة القديمة أى باليد طرقا لا بالآلات الميكانيكية ولذلك تجد مصنوعاتها أتقن صنعاً وأغلى ثمناً من غيرها

ومما أعجبنى بها وشاهدته أيضاً فى غيرها من مدن اسبانيا نوع من الاباريق الفخار الابيض والاحمر كالتى تصنع بمصر بجهة أبي السعود ولها فم (بزبوز) يشرب منه القوم بكيفية غريبة وهي أن يرفع الشخص الابريق الى فيه ويصب فيه الماء صبا على بعد نحو عشرة سنتمترات ويقولون ان الشرب بهذه الكيفية يطفئ جذوة العطش بقليل من الماء وأظن ان هذه الطريقة متبعة فى بلادنا فى بعض جهات الريف

(تاريخها) هذه المدينة قديمة جداً أسسها الرومانيون وكان اسمها (توليتم) بقيت من المدن ذات الامتيازات مونيسيب (Municipe) الى أواخر القرن الثالث للميلاد ولما أغارت أمم الشمال على المملكة الرومانية وقسمت بلادها فيما بينها صارت طليطلة عاصمة لمملكة القوط وظلت مركزاً لملوكهم الى سنة ٧٠٩ ميلادية وفيها حصلت فتنة بين بقايا الرومانيين والقوطيين ضعضعت أحوالها وفى سنة ٧١١ فتحها طارق بن زياد فاتح الاندلس وجعلها مركزاً حربياً لحصانة موقعها كما قدمنا وبعد ثلاثمائة سنة استقل بها أميرها اسماعيل ذو النون كما استقل أغلب الامراء في البلاد الاخري حتى صارت طوائف فطمع فيها المسيحيون الذين كانوا يترقبون الفرص لطرد المسلمين من بلادهم فحاصروها عدة سنوات ثم دخلوها فى سنة ١٠٨٥ ميلادية بدسيسة من المسيحيين الذميين واليهود وانسحب أميرها ومن معه الى مدينة بلنسية وبعد ان كانت حصناً للمسلمين ضد تقدم المسيحيين الى جهات الاندلس اتخذها المسيحيون مركزاً للاغارة على الجهات الجنوبية وحصناً يلجئون اليه لو شدد المسلمون في متابعتهم ومن ذلك الحين ضعف شأن المسلمين بزيادة تفرقهم حتى ضاع ملكهم وعادت هذه البلاد الى المسيحية ولاقى من بقى فيها من المسلمين ماتشيب لذكره الولدان



﴿ مدينة الاسكوريال ومكتبتها ﴾

لما علمت جمعية احياء العلوم العربية القائمة الآن بطبع قاموس المخصص لابن سيده بأني أقصد السفر الى بلاد اسبانيا كلفتني بأن أزور مكتبة الاسكوريال الشهيرة لاطلع على الجزئين الموجودين بها من المخصص وأتأكد مما اذا كانا متممين للاجزاء الموجودة لديها

وللوصول الى هذه الغاية استحصلت قبل سفرى على جواب من قنصل جنرال دولة اسبانيا بمصر الى وكيل الخارجية بمدريد فلما وصلت مدريد أرسلت خطاباً الى المرسل اليه أخبره فيه بحضورى وأطلب مقابلته لأقدم اليه كتاب القنصل فوردنى الرد منه مؤذناً بالساعة التى يمكنى التوجه فيها اليه فقصدته فى اليوم والساعة المعينين وقدمت له الجواب فلقيت منه كل بشر وايناس ثم وعدنى بأنه يرسل لى بالاوتيل خطاباً برسم مدير المكتبة ليسمح لى بالاطلاع على ما أريد من الكتب العربية

وفى اليوم التالى ورد لى الجواب فسافرت الى الاسكوريال مع الدليل الذى رافقنى مدة اقامتى بمدريد على قطار الصباح فوصلنا بعد ساعتين مع ان المسافة خمسون كيلو متراً فقط ثم قصدنا المكتبة وقدمنا جواب نظارة الخارجية الى مديرها — وهو فى آن واحد رئيس الدير العظيم الموجودة به المكتبة - فأذن لنا بزيارة قاعة الكتب خط اليد وهي لا تزار الا باذن خصوصى ورافقنا اليها أحد القسوس ولما أعلمته بقصدى أحضر لى الجزئين الموجودين عندهم من كتاب المخصص فتحققت بعد تصحفهما انهما السادس عشر والسابع عشر وهما موجودان لدينا

ثم أخذت فى زيارة باقى المكتبة والدير والكنيسة المظيمة الملاصقة لها وقبور ملوك اسبانيا وسرايتهم الى آخر النهار

مدينة الاسكوريال مدينة صغيرة واسمها مشتق من كلمة (Scories) ومعناها بقايا الفحم التى توجد حول المناجم وتوجد بكثرة حول هذه المدينة وكان مبدأ شهرتها فى القرن السادس عشر للمسيح بسبب تأسيس الملك فيليب الثانى ابن شارلكان الشهير للدير والكنيسة وما يجاورهما من المكتبة والسراى الملوكية فى سنة ١٥٧٣ ، ويقولون ان السبب فى تشييد هذه الكنيسة المظيمة ان هذا الملك أطلق القنابل على كنيسة للقديس (لوران) فهدمها حين كان يحاصر مدينة سان كنتان بفرنسا فأراد تشييد كنيسة الاسكوريال اتقاء لسخط ذلك القديس المعتبر لدى القوم

وتكون هذه الكنيسة وما يتبعها بناء ضخما طوله ٢٨٠ متراً وعرضه ١٥٦ وكله من الحجر المصفر اللون وبه ستة عشر فناء و ١١١٠ شباكا و ١٢٠٠ باباً و ٨٦ سلما وقد زرته تفصيلا ومما رأيته مما يستحق الذكر بالمحل المعد لسكنى الملوك كثير من البسط التى تملق بالحيطان وتمثل بعض الوقائع الحربيـة أو الروايات الغرامية كالتى تصنع بمحل جوبلان بفرنسا

وبهذا القصر قاعة طولها ٥٤ متراً مرسوم على احدى جانبيها احدى الوقائع العسكرية التى حصلت بين العرب والافرنج تحت اسوار مدينة غرناطة فترى جنود الاسلام مشاة وركباناً بملابس ذلك الوقت مصطفين كالبنيان المرصوص تخفق فوقهم البنود والاعلام وجنود الافرنج كذلك أمامهم وهـذه الصورة وحيدة من نوعها ولا مثيل لها فى متاحف الدنيا وباقى جهات هذه القاعة عدة صور أخرى تمثل بعض الوقائع البحرية أو البرية بين الاسبانيول والفرنساويين

أو البرتقاليين وبهذه السراى المحلات التى كان يسكنها فيليب وبها للآن بعض الاثاث القديم

أما الكنيسة نفسها ففى غاية الزخرفة وبها من تماثيل الرخام شئ كثير وهى متسعة جداً ويبلغ ارتفاع أبراجها سبعين متراً وباحدى جوانبها مصلى صغيرة بها الصندوق الموضوع به جثة الملكة (مرسيديس) الزوجة الاولى للملك الفونس الثانى عشر والد الملك الحالى وحولها الشموع موقدة ليلا ونهاراً وقد أطلعني خادم الكنيسة على الملابس التى يرتديها رجال الكهنوت فى الاحتفالات الكبرى وكلها مطرزة بأيدي نساء الملوك وأنامل أعرق السيدات حسباً وشرفاً ومنها ما قد مضى عليه ثلاثة أو أربعة قرون

وبجوار الكنيسة مقابر العائلة الملوكية وهي تتألف من غرفة كبرى على يسار النازل وبها قبور الملوك وزوجاتهن اللاتى أعقبن ذرية ثم يرى النازل على يمينه عدة غرف أقل من الاولى زخرفة وبها قبور باقى أفراد العائلة والملكات اللاتي لم تعقب ذرية ومن ضمنها غرفة لقبور عائلة (مونبانسيه) الفرنساوية الاصل ومتصلة بملوك اسپانيا بروابط النسب والقرابة

ويصل الانسان الى جميع هذه القاعات بدرج بجوار مدخل الكنيسة فينزل ٢٥ درجة من حجر الجرانيت ثم يجد باباً من الرخام والبرونز جميل الصنع ومن بعده ينزل ٣٤ درجة هي وجدران وسقف المكان من الرخام الملون وفى آخرها يجد قاعة معدة لحفظ الجثث عدة من السنين في جو مبرد بطريقة صناعية لتجفيفها وحفظها من التعفن قبل أن توضع فى القبر ثم يجد بابين الاول على اليسار وهو الموصل الى قاعة قبور الملوك وهى من الرخام المختلف الالوان

وشكلها مثمن الاضلاع وقطرها عشرة أمتار وارتفاع قبتها يزيد عن ذلك قليلا وهي تحت المحل المعد لوقوف القسيس وقت الصلاة وبها القبور موضوعة كل أربعة فوق بعضها الرجال على اليسار والنساء على اليمين وبها قبور شارل الخامس الشهير بشالكان وفيليب الثانى وفيليب الثالث والرابع وشارل الثانى والثالث والرابع وغيرهم والملكة اليزابيت زوجة شارلكان وأنه زوجة فيليب الثاني ومرجريت زوجة فيليب الثالث وغيرهن

أما القاعات التى على يمين الداخل فمدة وهى أقل من الاولى زخرفة وبها عدة قبور وكلها من الرخام وعليها اسم من دفن فيها بماء الذهب وأهمها قبر دون خوان الذى انتصر على العثمانيين فى واقعة ليبانت البحرية الشهيرة سنة ١٥٧١

وبجوار الكنيسة دير عظيم لسكنى القسوس والرهبان وأهم ما به فناء واسع تحيط به الاعمدة على الشكل الاندلسى وبجدرانه عدة رسومات دينية وباحدى جوانبه سلم عظيم من الحجر تعلوه قبة مرتفعة جداً

وبالاختصار فسراي الاسكوريال وما بها من أجمل ما شاد الملوك والحكومة الاسبانية معتنية بحفظها شأن جميع حكومات الغرب فى حفظ قصور أجدادهم بل أسلحتهم وملابسهم أما فى بلاد الاسلام فكل ملك أو وال يتولى يسارع فى بيع ما تركه والده أو سلفه من السرايات وبناء غيرها الا ما ندر مما لا يبنى عليه حكم



﴿ مدينة قرطبة وجامعها الشهير ﴾

كانت هذه المدينة زاهرة عامرة فى أيام الاسلام والمسلمين آهلة بالمدارس والطلبة يقصدها الطلاب من كل صقع وناد للاخذ عن أكبر علمائها أيام كانت أوروبا غارقة في بحار الجهل هائمة في فيافي الهمجية . ثم سقطت ايما سقوط بعد جلاء المسلمين عنها فبعد ان كان عدد سكانها يربو على نصف مليون من النفوس أصبح الآن لا يزيد عن خمسين الفا وهي تبعد عن مديد (مجريط) عاصمة الاسبان باربعمائة وخمسة واربعين كيلو متراً يقطعها الاكسبريس وهو اسرع قطار لديهم في نحو احدى عشرة ساعة اي بمتوسط أربعين كيلو متراً فقط في الساعة

وصلتها في صبيحة يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو فلم يرقني منظرها لاني وجدت الشوارع الكبري الموصلة من المحطة لداخل المدينه كلها متربة وغير نظيفة لا بلاط بل ولا حصباء لها

أما داخلها فى غاية النظافة وأغلب شوارعها ضيقة لاتسمح بمرور العربات ومبلطة من عهد المسلمين وأغلب بيوتها قديمة اسلامية لكل منها فناء تحيط به أعمدة الرخام وفى وسطه فساقى الماء والاشجار وفى شبابيكها قضبان الحديد فهى تشبه من عدة وجوه البيوت القديمة بمصر بدرجة انى كنت أظن نفسى فى أحد الاحياء القديمة بالقاهرة

وبعد ان استرحت قليلا فى الفندق (وهو على هذا المثال اللطيف) قصدت الجامع الاموى فوجدت مايدهش الاب ويخلع القلب حزناً رأيت

مسجداً جامعاً تطاولت اليه يد التعصب المسيحي فعلقت الاجراس فى منارته ووضعت التماثيل والصلبان فى مدخله لكن هذه الاضافات الحديثة لم تشوه من منظره بل هو لا يزال ناطقا بانه أثر اسلامي يشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله .

دخلت اليه من بابه الكبير فوجدت فناء متسعا جداً طوله مائة متر وعشرة أمتار وعرضه ٥٥ متراً تظلله أشجار البرتقال والنخيل وبه الميضآت الاصلية في وسطها نافورات الماء ومن هذا الفناء يدخل الانسان الي الجامع نفسه وهو متسع جداً طوله ١٦٧ متراً فى عرض ١١٩ متراً ولا يزيد ارتفاعه عن أحد عشر متراً وبه تسعة عشر صفاً من عواميد الرخام المختلف الالوان بكل صف منها نحو أربعين عاموداً وقد أحصى مابه من أعمدة الرخام فوجدت تزيد عن الالف عدا وكان سقفه من الاخشاب الثمينة فأزيل أغلبها بعد دخول المسيحيين اليها وبنيت مكانها عقود من الحجر كالتي في الكنائس الا أنهم شرعوا في اعادته الى أصله والعمل جار فيه الآن .

لما يقف الانسان عند مدخل هذا الحرم المتسع لا يملك نفسه لا أقول عن البكاء حتى لا أكون مبالغاً بل عن الشعور بانقباض فى النفس وضيق فى الصدر لما يرى هذا المسجد الجامع خاوياً من المسلمين خالياً من الموحدين خصوصاً حينما يرن في آذانه صدى صوت الارغن وترتيل المرتلين وصوت القسوس والرهبان بدل نداء المؤذن وتكبير المصلين والركوع والسجود

كيف لا تخلع القلوب من الصدور ويجمد الدم فى العروق حينما يفتكر الانسان في أن ما أصاب هذا المسجد ربما يصيب غيره من مساجد المسلمين ان دام الاسلام على هذا الحال وظلت أوربا تقول بملء فيها ان

ما يؤخذ من الهلال لا يرد اليه

كيف لا يذوب الانسان أسى عند ما يرى الجوامع في عهدنا هذا تحول الى كنائس في البلغار وغيرها من البلاد التي سلخت ظلماً من أملاك الاسلام وصارت الى الصليب كما يعبرون .

كيف لا يشعر الانسان بكل ذلك حينما يتخيل الناظر حالة هذا الجامع أمام عز الدولة الاموية الغربية ويتصوره غاصاً بجموع المصلين متصاقين كالبنيان المرصوص ثم يرسل بصره اليه الآن فلا يجد فيه بل في كل بلاد الاندلس من ينطق بالشهادتين ؟

هاجر الكل الى بلاد افريقية وأكره الباقون على اعتناق المسيحية كما يهاجر الآن سكان كريد والصرب والبلغار وغيرها وكما يخشى أن يهاجر غيرهم لا قدر الله

لقد أقام القوم كنيسة كبرى في وسط الجامع بذلوا كل مرتخص وغال في زخرفتها لتزيد عن الجامع الاصلي في الرونق والبهاء فلم يصلوا الا لتشويه منظر الجامع حتى قيل ان شارلكان الآمر ببناء هذه الكنيسة لما زارها بعد تمامها أسف على ما أمر به وقال « لو كنت أعلم ان الجامع بهذا الحسن لحافظت عليه » وكذلك أقاموا في دائرته مصليات للعبادة ودفن امامها كثير من أساقفتهم ورجال دينهم كما حولوا المقصورة التي كانت معدة لصلاة الامير على يسار القبلة الى زاوية من هذا القبيل لكنهم حافظوا على القبلة تمام المحافظة وأمامها قبة عالية سقفها من الخشب المرصع بالعاج والصدف وهي قائمة على أعمدة من الرخام الابيض وفي القبلة نفسها حجرة صغيرة مستديرة يبلغ قطرها أربعة أمتار وارتفاعها سبعة أمتار وقبتها من قطعة واحدة من الرخام وهي مكسوة من

داخلها بالفسيفساء على أجمل شكل وأتقن صنع وبداثرها آيات قرآنية بالقلم الكوفي وبالذهب الابريز وقد تمكنت من قراءة آخر جملة منها وهى (فى شهر الحجة سنة أربعة وخمسمائة) فسبحان من له الدوام والبقاء

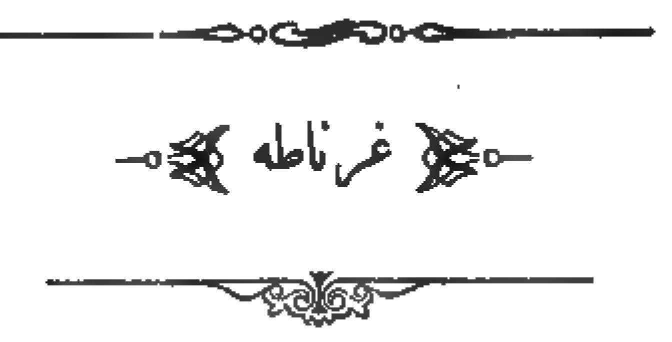
ومما يستحق الذكر من آثار العرب بهذه المدينة قنطرة على نهر الوادى الكبير قبلي الجامع تحميها قلعة قديمة حصينة جداً باقية الى الآن تمنع من وصول العدو الى هذه القنطرة

ويقول العارفون ان طريقة رفع المياه من الوادى الكبير الى المدينة وتوزيعها الى جميع مساكنها باقية من أيام العرب وهي من الاعمال التى تشهد لهم بطاول الباع في مسائل الرى

(تاريخها) أسس هذه المدينة الفينقيون وأنشؤا بها معاصر الزيت لكثرة شجرة الزيتون باقليم الاندلس ووفرته فيه حتى الآن ويقال ان اسمها مشتق من لفظ (قرطب) بالفينيقية ومعناها المعصرة ثم صارت رومانية لما فتح الرومانيون بلاد اسبانيا وتخربت أثناء حروب قيصر وبومبيوس ولما أغار القوط على هذه البلاد تلقبت بالمملكة القوطية التي كانت عاصمتها طليطلة وأخيراً فتحها العرب ونقل اليها الامير موسى حاكم الاندلس مركز الامارة وظلت عاصمة للاندلس تابعة للعباسيين الى أن استقل بالامر عبد الرحمن الداخل وهو الذي شرع فى تأسيس هذا المسجد الجامع حفظاً لذكرى الجامع الاموى بدمشق الذى أنشأه أجداده خلفاء بنى أمية ثم أتمه ولده هشام ووسعه من أتى بعده وقضية شراء الدور المجاورة له وما حصل من المرأة صاحبة الدار التى أبت بيعها مالم يعطها الامير داراً مثلها بها نخلة كالتى بدارها مشهورة ومسطورة فى كتاب السفر الى المؤتمر لصاحب العزة العالم المحقق

أحمد بك زكي

ثم تضعضع حالها وحال الاسلام في الاندلس وتفرقت كلمة المسلمين وصارت ملوكهم شتى فتمكن العدو من فتح بلادهم وفتح الملك فردينان الثالث قرطبة سنة ١٢١٢ ميلادية وطرد أهلها منها الا من قبل الدخول فى المسيحية وقليل ما هم وقد فتح هذا الملك مدينة اشبيلية سنة ١٢٤٨ وتوفى سنة ١٢٥٣ ودفن باشبيلية فى الكنيسة التي أقيمت مكان جامعها كما ستراه عند الكلام على اشبيلية



غرناطه

بعد ان متعت الطرف بمناظر مدينة قرطبة الطبيعية وآثارها الاسلامية وزرت مسجدها الجامع وقنطرتها الشهيرة سافرت منها قاصداً مدينة غرناطة وعند ركوبى القطار تذكرت قول بعضهم فى وصفها وأخذت أردده طول طريقى

بأربع فاقت الاقطار قرطبة ... وهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثه ... والعلم أفضل شئ وهو رابعها

فسارت بنا باخرة البروسط وديان الاندلس الزهراء وجبالها الخضراء وغابات الزيتون على جانبي الطريق مغروسة بانتظام ومن بينها أشجار قديمة جداً ومتناهية فى الضخامة حتى ليتخيل للناظر انها من عهد الاسلام والمسلمين

لما وصلنا الى محطة أبي عبد الله Boabdil تشعب الطريق الى شعبتين تتجه احداهما الى مالقة Malaga على شاطئ البحر وهي مصيف أغنياء القوم وتولى الاخرى وجهها شطر غرناطة فتبعنا هذه الاخيرة الى عاصمة الغرب الاسلامي القديمة فوصلناها في نحو الساعة التاسعة مساء

وبمجرد وصولي اليها سألت عن لوكاندة واشنطون فدلني بعضهم على مترجمها وهو أوصلني الى عربة الاوتيل ورافقني اليها وهي قائمة تحت سور قلعة الحمراء وبالقرب من احد أبوابها الكبرى وسميت واشنطون اوتيل نسبة الى واشنطون أيرونج الشاعر الامريكي الشهير الذي زار قلعة الحمراء وقصرها من نحو ستين سنة وكتب عنها القصائد الرنانة التي استلفتت الانظار اليها وحدت بالحكومة الاسبانية الى الاعتناء بهذا الاثر الجليل والمحافظة على ماتبقي منه بعد ان تركته في زوايا الاهمال وكاد يخنى عليه الدهر كما اخنى على لبد

مدينة غرناطة أهم مدن الاسلام بالاندلس قائمة على ثلاث مرتفعات تتخللها الوديان النضرة تجرى فيها الجداول اللجينية وكلها حمراء التربة وربما كان هذا اللون أصل تسمية قصر هذه المدينة بقصر الحمراء

وبسبب احمرار تربتها ووضعها بهذه الكيفية شبهها القوم برمانة منقسمة الى ثلاثة أقسام فسميت Granada ومعناها (الرمانه) ثم عربه العرب وسموها غرناطه

أما الحمراء فقائمة على أكثر هذه المرتفعات الثلاثة ارتفاعاً اذ يبلغ ارتفاعه ١٥٠ متراً عن المدينة تحيط بها الاسوار والابراج من كل جانب وبداخلها القصر المشهور

ويدخل الى الحمراء الآن من باب العدل وهو الباب الوحيد الحافظ لشكله الاصلى وعليه رسم يد اشارة الى العدل وهو يشبه باب العزب بقلعة مصر ومنه يدخل الى (دركاه) ثم ينعطف الداخل يميناً ثم يساراً كما هو الحال فى القصور القديمة بمصر فيجد فناء متسعا به صهريج عظيم من أيام العرب تجمع فيه مياه الامطار لشرب من بالقلعة والقصر من السكان والجنود وهو باق للآن على حاله وماءه عزب فرات كنت أقصد الشرب منه فى أغلب أوقات النهار لبرودته الطبيعيه

ثم يجد الانسان على يمينه بستانا صغيراً وبالقرب منه القصر العظيم الذى أراد شارلكان تشييده بجوار قصر الحمراء ولم يتمكن هو ولا خلفاؤه من اتمامه وفنائه مستعمل الآن مرسحا لمصارعة الثيران وميدانا للاحتفالات العمومية وقد كان الشروع فى بنائه سببا لهدم جامع القصر وبعض ملحقاته كما هدم بسببه أغلب دور القواد والامراء التي كانت بجوار القصر داخل القلعه

وبجانبه مدخل قصر الحمراء فيرى الداخل امامه غرفة مستطيلة لاشئ بها يستلفت النظر ويتوصل منها الى فناء يبلغ طوله ٤٠٫٥٠ متراً وعرضه ٢٢ متراً وبوسطه بركة صناعية عميقة بها الماء الجارى والاسماك الزاهية الالوان وبجدرانه الاربع ازار من الجبس به أبيات شعرية بقلم مغربى قديم تمكنت من قراءة بعضها بعد التعب الذى لامزيد عليه وكنت أود قراءتها كلها وتمنيت لوكان معى حضرة الفاضل على بك بهجت وكيل امانة دار الآثار العربية بمصر فيحل ما غمض علىّ منها وهاك ما أمكننى حل رموزه :

فلو خير الاسلام فيما يريده	لما اختار الا أن تعيش وتسلما
طلعت في الافق للناس رحمة	لتجلو ما كان بالظلم أظلما

ثم يوجد على اليسار دهليز يوصل الى قاعة السفراء وهي اجمل محل بالقصر مربعة الشكل يبلغ طول كل ضلع من اضلاعها الاربع ١١ متراً وارتفاعها ١٨ متراً وبها ثمان شبابيك كبرى وعشرون صغرى باعلاها وسقفها من الاخشاب الثمينة مصنوعة باشكال شهد كل من رآها بانها اتقن ما صنع من نوعها ومن شبابيكها يرى المشرف منظراً بديعاً فيرى امامه مرتفع جنة الخليفة Génélalife الذي سيأتي الكلام عليه وما حوى من قصور وبساتين وشلالات صناعية ويرى نهر (دارو) يجرى بين الجبلين

اما جدران هذه القاعة فمكسوة بالنقوش الجبسية الجميلة تتخللها المواعظ أو عبارات التمجيد ففي فجوة الشبابيك ترى هذه العبارة مكررة (النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المؤمنين أيد الله أمره وأعز نصره) وبالجدران في وسط دوائر صغيرة هذه الجمل — لكل شدة — وما بكم من نعمة فمن الله — العزة لله — عز لمولانا الحجاج نصره الله وجمل أخرى من هذا القبيل

ويوجد بجوار هذه القاعة مسجداً صغيراً هدم أغلبه وأقيمت مكانه كنيسة صغرى Chapelle ولم تزل القبلة به على حالها تشهد بأن الدين عند الله الاسلام

ومن فناء البركة يدخل الى فناء آخر تحيط به الاعمدة وبوسطه فسقية صغيرة على شكل طبق عظيم من قطعة واحدة من الرخام يبلغ قطرها ثلاثة أمتار ويحملها ١٢ سبعاً غير تامة الشبه وربما كان هذا النقص مقصوداً حتى لا يعترض عليها بأنها من التماثيل أو الاصنام وبهذا الفناء ١٢٨ عاموداً من الرخام تصل بينها عقود جميلة الشكل عليها نقوش من الجبس بها آثار تدل

على انها كانت موشاة بالذهب وملونة بالالوان المختلفة

وبصدر هذا المكان ثلاث غرف متصلة ببعضها يقول القوم انها كانت مقعد الامير عند نظره في شؤون الامة وبسقف أحدها صور ثلاثة رجال يقال كذلك انها صورة أحد الامراء ووزيريه وهي من صنع أسرى الطليان

ولقد وجدت باحدى هذه الغرف لوحاً من الرخام منقوشة عليه قصيدة طويلة تفيد انه كان موضوعا على قبر أحد الامراء وقد وجدت صورة هذا اللوح بدار الآثار بمدريد واليك بعض أبياتها

مغنى الكرامة والرضوان يعمره   نجر الملوك الكريم الوافر الشيم
مقامه في كلا يومي ندي ووغى   كالغيث في النخل اوكالليث فى الاجم
من كان يجهل ما اولاه من نعم   وما حواه لدين الله من حرم
فتلك آثاره في كل مكرمة   ابدى واوضح من نار على علم
لازال تهمى على قبر تضمنه   سحائب الرحمة الوكافة الديم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

هذا ويوجد على يمين الداخل قاعة جميلة تسمى قاعة بني سراج ويقال انها سميت بهذا الاسم لان امراء هذه القبيلة قتلوا فيها

وبدائرها ازار فيه اشعار رقيقة في وصف المكان او في مدح الامير منها

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها   ولم تك في افق السماء جواريا
فتحسبها الافلاك دارت قسيها   تظل عمود الصبح اذ لاح باديا

وعلى يسار فناء السباع قاعة صغيرة تسمي قاعة الاختين لوجود رخامتين جميلتين بارضها وبها شباك وباب عتيقان يقولون انهما من أيام العرب وأما باقي الشبابيك والابواب فمصنوعة حديثاً على الشكل القديم

وباحدي زوايا هذه القاعة إناء كبير من الصيني القديم ارتفاعه ١٣٦ر١ ومحيطه متران و٢٥ سنتيا وممتنى بحفظه جيداً لعدم وجود آخر من نوعه من صناعة ذلك الوقت ومما قرأته على جدرانها هذين البيتين

ذاك صرح الزجاج من قد رآه ظنه لجة تروع وهاله
كل هذا صنع الامام بن نصر حرس الله للملوك جلاله

وعلى أحد جوانبها

عز اشرف الاعصار وفاتح الامصار مولانا أبي عبدالله.... الابصار

وتطل هذه القاعة الصغيرة الجميلة على بستان صغير لطيف يسمى بستان الدراكسه Aldaraxa وقد قرأت فى كتاب لمهندس الحمراء على آثار العرب ان هذه الكلمة محرفة عن (دارعائشة) وان هذا الاسم كان يطلق على هذا الجزء من القصر

ومن الجهة الاخرى لهذا البستان يوجد محلان مرتفعان من عمارة شارلكان على سور الحمراء وحولها ممشى (بلكون) تشرف على الوادى من ارتفاع نحو خمسين متراً وبها عدة نقوش قديمة من صنع مصورى الطاليان تمثل حملة شارلكان البحرية على تونس وبعض مناظر أخرى خيالية

وباسفل قصر الحمراء حماماته القديمة وهى من أبدع ما رأى الراؤون وأجمل ما نظر الناظرون بها الواح القاشانى الدقيق الصنع بارضها وجدرانها وكثير من أعمدة الرخام المختلف الالوان والحيضان الرخامية المتسمة والباقى منها على حالها نحو نصفها وأما النصف الآخر فقد بلغ به التخريب درجة صعب معها اصلاحه فسدت أبوابه

وبالسور عدة أبراج تخرب أغلبها واهتمت الحكومة باصلاح بعضها

وقد زرت ما أصلح منها فوجدت بها عدة غرف جميلة جداً بجدرانها وأسقفها نقوش كثيرة بالجبس ووجدت مكتوبا بدائر احداها لا اله الا الله محمد رسول الله مكررة وباخرى هذا البيت

انعمت يا ربى فزد   فانت خير من قصد

وتحته « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله المستعين بالله » ووجدت فى برج آخر هذه الابيات

الله أحمد فى عميم نواله   حمداً يحق لعزه وجلاله
ثم الصلاة على النبي المجتبى   وعلى صحابته الكماة وآله

وغيره

الحمد لله على ما منحا   من أنعم نترا اصيلا وضحا
أرجو كما أنعم فيما قدمضى   لعله فيما بقى أن يسمحا

ووجدت فى دائر غرفة أخرى سور المعوذتين والاخلاص وكل هذه الكتابات على ألواح من القاشانى الازرق والكتابة بحروف بيضاء وخطها ليس بالمغربي القديم بل سهل المطالعة لكل قاريء

وبداخل الحمراء عدة آثار أخرى قليلة الاهمية والحكومة باذلة جهدها في اصلاح وترميم ما أبقت يد الدهر على بعضه وعهدت بهذه الاصلاحات لمهندس مخصوص خصصت له في السنة نحو ألفي جنيه وهو يسكن باحدى جوانبها ويشغل باقى وقته بصناعة بعض الادوات المنزلية كالكراسى والمكاتب والدواليب وغيرها على الشكل العربى مستعينا بما في الحمراء من النقوش وقد أخبرنى ولده أن بضاعته أكثر رواجا لدى الامريكيين من السواح الذين يتوافدون بكثرة على بلاد الاندلس خصوصاً في فصل الربيع أى فى شهور

مارث وابريل حين يملأ الفضاء عبير الرياحين و الازهار . ويغرد على غصون الاشجار القمري والهذار

وفى شمال قصر الحمراء يوجد قصر بديع على مرتفع آخر يفصل بينهما واديانع ويسمى قصر Généralife جنراليف وتوصل اليه طريق متسعة تمر امام الفندق الذى كنت به وبه بستان غريب فى بابه فانه على شكل درج بمعنى انه يبتدى من أسفل المرتفع ويصعد طبقة بعد طبقة الى قمته وبين كل طبقة وأخرى درجات من الرخام وبسبب هذا الوضع أمكن ترتيب الماء الآتي من الاعلا بكيفية انه يكوّن أثناء نزوله سلسبيلا لطيفاً وذلك انه اقيم على جانبي السلم الواصل من أسفله الى أعلاه قنوات من الفخار يتحدر فيها الماء بصوت لطيف وبعد كل نحو خمسة عشر درجة تجد مسطبة بها فسقية يفور الماء من وسطها وهكذا الى آخر الدرج . وفوق هذا السلم عريشة عليها أنواع الياسمين والورد ولم يكن الماء غديراً أثناء زيارتى لكن ما رأيته كان كافياً لان اتصور منظره فى فصل الربيع وقتما تكون المياه متدفقة والازهار متفتحة والطبيعة لابسة أبهى حللها

ويقول الاسبانيون ان هذا القصر كان لأمير من أمراء المسلمين اسمه سيدى يحي الطيار تنصر بعد سقوط غرناطة فى ايدى المسيحيين وسمى (دون بدرو) وان القصر لم يزل فى ملك ذريته الى الان

ويوجد باحدى غرفه شجرة نسب على لوحة كبيرة من الجلد القرطبي المشهور لاثبات ذلك النسب وبها أيضاً صورة ذلك الجد المزعوم أو الحقيق وهو بلباس العرب وصورته وهو بلباس الافرنج لكنى أشك فى صحة هذه الرواية لان جميع أمراء المسلمين خرجوا مع أبي عبد الله عند ما سلم القلعه الى فرديناند الرابع الملقب بالكاتوليكي وزوجته فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كما هو مذكور فى

كتب التاريخ

ويحف بهذا القصر من الجنوب شبه رواق مستطيل قائم على أعمدة من الرخام يشرف على قصر الحمراء ومايحيط بها من البساتين والمزارع ويوجد مثل هذا الرواق فى أغلب قصور الاسبانيين القديمة والحديثة للاشراف منها على ماحولها من المناظر وتسمى بلغتهم ميرادور Nirador

وفى الشمال الشرقى من قلعة الحمراء وقصرها يوجد مرتفع البيازين سمى بهذا الاسم لانه أيام العرب كان مسكنا لطائفة من الناس تحترف بتربية البازات المعدة للصيد وقد حرف الافرنج هذا الاسم فصار البايسين Albaycin وبهذه المحلة كثير من آثار الابنية الاسلامية قليلة الاهمية وجزؤ عظيم من سور المدينة القديم الذي كان يتبع هاتيك النجاد والوهاد صعودا وهبوطا ويسكن هذا الحى طائفة الغجر الكثيرة الانتشار بهذا الاقليم وهم شديدو السمرة يتكلمون لغة ليست بالاسبانية ولا بالعربية ولهم ازياء وعوائد مخصوصة ويحترفون بالحرف الدنية مثل التكهن وقراءة الكف والرقص فى الشوارع والاسواق والتسول فى الطرقات ومنهم عدد عظيم يسكنون فى بيوت صغيرة منحوتة فى الصخر لايدخلها الهواء والنور الا من بابها وقد دخلت بعضها فوجدتها على صغرها نظيفة جداً مطلية بالجير لكن لاأثاث بها فهى أشبه شئ بعشش فقراء المصريين الا انها تمتاز عنها بالنظافة

وقد وجدت مثل هذه المساكن فى بعض جهات أخرى بالمدينة ومنظر مداخلها من بعيد كمنظر قبور المصريين القدماء التى يراها المسافر الى حلوان على اليسار بجبل المعصرة وبكثير من جهات الصعيد بالجبل الشرقى

هذا وأهم مافي هذه المدينة من الآثار الكنيسة الكبرى التى شرع فى تشييدها

سنة ١٥٢٣ ميلاديه وطولها ١١٧ متراً وعرضها ٦٧ متراً وكسور وبها كثير من الصور والتماثيل كغيرها من الكنائس

وبجانبها كنيسة صغرى بها قبرا فرديناند وزوجته ملوك اسبانيا اللذين استخلصا غرناطة من المسلمين وهما من الرخام الابيض وعليها تمثال الملك وزوجته راقدين على ظهورهما وأيديهما مشبكة على صدورهما بشكل صليب كما هي العادة عند المسيحيين

وبهذا المحل صورة زيتية كبرى تمثل خروج الاميرأبي عبد الله صاحب غرناطة من قلعة الحمراء وتسليمه مفاتيحها الى الملك فرديناند وزوجته تحيط بها القواد وأشراف القوم وكبار قسوسهم وبه أيضاً ملابس الكهنوت مزركشة ومطرزة بأنامل الملكات والاميرات من عهد قديم على أحسن طرز وأدق صنع

وبجوار هذه الكنيسة سوق عربي قديم بأبواب حوانيته العقود العربية وقد جدد سنة ١٨٤٣ على شكله القديم بعد ان دمرته النار ويسمى للآن (القيصرية) كما تسمى الاسواق بأغلب بنادر القطر المصري

ومما يستحق زيارة الغريب بضواحي المدينة دير الكرطوخة (Cartuja) اذ يوجد بجدران فنائه عدة صور تمثل ماقاساه سان برونو San Bruno مؤسس طائفة شارتروز Charteuses التي شيدت هذا المكان هو وتابعوه من أنواع العذاب. وبالكنيسة الملاصقة لهذا الدير عدة صور زيتية تمثل حياة السيدة مريم العذراء عليها السلام وأشغال كثيرة من الخشب الثمين والرخام الملون

ويمر بمدينة غرناطة نهر شنيل المشهور في كتب العرب والذي تفتن

الشعراء في وصفه وتغالوا في مدحه حتى فضلوه على النيل بزيادة الثين وهو الف من العدد ويسميه الافرنج (خنيل) Genil

ومن أحسن مارأيته في وصف غرناطةووادبها هذان البيتان في كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطه للوزير محمد لسان الدين بن الخطيب الذي طبع حديثاً

بلد تحف به الرياض كأنه   وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة   ومن الجسور المحكمات سواره

(تاريخها) غرناطة مدينة قديمة العهد أسستها قبيلةالايبيريين ثم استولى عليها الرومانيون وظلت في حكمهم حتى سقطت الدولة الرومانية الغربية وحلت مكانها باسبانيا عدة أماراة قوطية وفتحها المسلمون في القرن الثامن للميلاد (سنة ٩٢ هجريه)وتقدمت فى أيامهم تقدماً عظيماً حتى صارت أول مدائن الاندلس في العمارية ولما تضعضع حال المسلمين وسقطت أغلب بلادهم في أيدي الافرنج هاجر اليها كثير من سكان قرطبة واشبيلية وغيرهما فاتسعت ونمت وقصدها مهاجرو المسلمين من كل جهة وأصبحت حصن الاسلام الاخير في هذه البلاد التي امتلكها المسلمون الاجيال الطوال

وفي آخر عهدها حصرها الملك فرديناند الرابع وزوجته ايزابلا مدة ومنعوا الاقوات من الوصول اليها حتى كاد الجوع يفنى سكانها فاضطر آخر أمرائها محمد بن عبد الله الى تسليمها والخروج منها الى افريقية بعياله ورجاله وقواده بعد ان أمضى مع ملك الاسبان معاهدة تقضى باحترام دين من تخلف بها من المسلمين فدخلها الاسبان في ٢ يناير سنة ١٤٩٢ الا أنهم لم يراعوا للعهد حرمة ولم يخفروا للمسلمين ذمة فاضطهدوهم واكرهوهم على التنصر وساموهم

من أنواع العذاب مالم يخطر على فكر انسان وسيبقى الى الابد نقطة سوداء في تاريخ المسيحية اجمع واسبانيا على الخصوص

مدينة اشبيلية Seville

بعد ان قضيت بغرناطة يومى الاربع والخميس سافرت منها في صباح الجمعة ٢٦ يوليه قاصداً اشبيلية فوصلتها قبل الغروب بنحو ساعتين وبمجرد وصولي اليها وايداع متاعي بأوتيل مدريد ركبت الترمواى الكهربائي ومررت في أهم شوارع المدينة لاراها في شكلها العام بوجه الاجمال . وبعد تناول طعام العشاء تمشيت قليلاً على شاطئ الوادي الكبير ثم عدت للنوم والاستراحة من السفر بعد ان اتفقت من أحد الدلالاء على مرافقتي طول يوم السبت ليطلعني على أهم ما بالمدينة من الآثار القديمة وبالاخص على العربية منها حتى أسافر الى قادس يوم الاحد وأبحر منها الى طنجة يوم الاثنين التالي

اشبيلية وكانت تسمى أيضاً حمص مدينة جميلة فى غاية النظافة يبلغ عددسكانها ١٥٠ الف نفس وهى قائمة فى واد فسيح على شاطئ الوادي الكبير الذى يسميه الافرنج Guadalquivir تحريفاً عن اسمه العربي وهو نهر قرطبه وتبعد عن مصبه فى البحر بنحو ثمانين كيلو مترا وهي ثغر تجارى مهم فتحمل اليها السلع والبضائع عن طريق النهر من جميع جهات الدنيا ويساعد السفن على الصعود والنزول الطيار الذي يتولد بسبب المد والجزر ولقد وصف بعض الشعراء حركتي المد والجزر بهذين البيتين

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءاً فضم من الحياء أزاره

وأغلب شوارع المدينة ضيقة ملتوية الا انها نظيفة ومبلطه وبجميع منازلها الفناءآت الجميلة بهانافورات الماء والشجيرات والازهار والرياحين وعلى أبوابها أعمدة الرخام والنقوش المتقنة وبها الترمواى الكهربائي فى الشوارع الجديدة المتسعة ويمر كذلك وسط المدينة فيصل بين اطرافها مع ضيق شوارعها ولا يسمح للعربات والدواب بالمرور من الشوارع القديمة كثيرة الزحام كالموسكي والغورية

وبسبب اشتداد حرها أيام الصيف تجد باغلب شوارعها مظلات من القماش على أسلاك دقيقة تنشر وقت الظهيرة وتطوى قرب الغروب

وأهم منتزهاتها شارع عظيم على شاطئ النهر يسمى شارع المنتزه أو شارع الملاذ (Las delicias) وبه قصور الامراء والاعيان وسط البساتين الجميلة بالقرب من حديقة عمومية متسعة بها بعض الطيور والحيوانات الغريبة

أهم مابقى باشبيلية من آثار العرب البرج والقصر وقناة الماء وجزء عظيم من السور أما البرج فبنى فى القرن الرابع الهجرى بجوار مسجد المدينة الجامع ليكون مرصداً لعلماء الفلك وهو من الطوب الاحمر مربع الشكل ارتفاعه سبعون متراً وعرضه من أسفل نحو ١٥ متراً ثم يقل تدريجاً الى ان يبلغ نحو الثمانية أمتار ويصعد الى قمته على سطح مائل من الداخل ميلا خفيفا بحيث لا يتعب الصاعد وقد زاد الافرنج فى ارتفاعه عشرين متراً ووضعوا به أجراس الكنيسة التى أقيمت مكان الجامع ورفعوا على قمته تمثالا للايمان (La foi) من البرونز يبلغ ارتفاعه اربعة أمتار ويزن ١٢٨٨ كيلو غراما أى نحو طن

وربع وهو موضوع بحيث يدور على نفسه عند هبوب الريح ويسمى هذا البرج فى لغة القوم (خرالدا) (Giralda) أى الدوار من فعل (Girar) أى دار

ويعجب أهل الفن بهذا البناء الشامخ الذى لم يؤثر عليه مرور الاعوام بل الاجيال فانه يبرهن على ما وصلت اليه العمارة فى أيام العرب حينما كانت اوروپا تتخبط فى غياهب الجهل فسبحان مغير الاحوال

أما القصر فهو على ما رأيت أجمل وأكثر زخرفة من قصر الحمراء وذلك لان ملوك اسپانيا اتخذوه سكنا لهم فحافظوا عليه وزادوا فى بعض جهاته الا انهم من جهة أخرى قشطوا ما كان بجدرانه من الايات القرآنية والمواعظ الاسلامية ورسموا محلها اشاراتهم وعلاماتهم فوضعوا شارة ملوك قسطالة وهى قصر وشارة ملوك ليون وهى (سبع) فى وسط الدوائر التى كان بها جملة لا غالب الا الله — الموجودة للان على جدران الحمراء

ولقد نزل بهذا القصر ملك سيام حينما زار عواصم اوروپا فى سنة ١٨٩٦ فاعجب به ايما اعجاب وشهد للعرب بالسبق فى ميادين العمران

وهو يشتمل على فناء متسع تحيط به أعمدة الرخام كباقى الابنية الاندلسية والمغربية وحوله الغرف والمقاصير بها ما يعجز عن وصفه القلم وأغلب أسقفها من الخشب الثمين المختلف الالوان وبعضها من الجبس على الشكل الذى يسمى فى العمارة المخوّص لانه يشبه خوص النخل المدلى وهو ما يسميه الافرنج (Stalactites) وهذا النوع لا يوجد الا فى أسقف هذا القصر وسقف قاعة بنى سراج بقصر الحمراء

وباعلا القصر عدة غرف كانت معدة لشارلكان وغيره من ملوك اسپانيا وأهمها قاعة بدائرها صور ملوك قسطالة رجالا ونساء ومن بينهم صورة

ماريا دى باديليا (Maria di Padilla) عشيقة دون بدرو الذى ملك من سنة ١٣٥٠ الى سنة ١٣٦٩ وهو الملقب بالقاسى لكثرة من قتل من أقاربه واخوته بل لقتله زوجته بلانش البربونيه وقدمات مقتولا بيد أخيه هنرى

وجدران أغلب هذه الغرف والفناء مغطاة بالقاشانى القديم النادر المثال وبجانبه قطع جديده يظهر الفرق بينها وبين القديمة لاول نظرة لما بين القديم والجديد من الفرق الظاهر

وخلف القصر بستان جيل به عدة فساقى من أيام المسلمين وبها حمامات جيلة تحت الاشجار انشأها دون بدرو لعشيقته سالفة الذكر ويقول القوم انها كانت تنزل اليها امام عشيقها وحاشيته ثم يشرب كل منهم جرعة من هذا الماء وكان هذا منتهى الخلاعة فى ايامهم

هـذا ويوجد على شاطئ الوادى الكبير برج يسمي برج الذهب Torre del Oro كان متصلا بسور القصر القديم ثم هدمت الابنية التي كانت تصل بينه وبين القصر وسمى بهـذا الاسم لان الذهب الذى كانت تاتي به السفن من بلاد البيرو والمكسيك بامريكا كان يوضع به وهو قليل الارتفاع وينتهى بقبة مكسوة بالقاشاني الاخضر

اما الكنيسة ففى غاية الزخرفة والاتقان واهم مافيها تمثال من البرونز لسان فرديناں فاتح قرطبة واشبيلية راكبا حصانا وبها أيضاً جثته فى تابوت من الفضة الخالصة موضوع فى كهف تحت موقف القسيس وقت الصلاة وقد أنزلنى خادم الكنيسة الى هـذا الكهف ورأيت التابوت وأخبرت أنه يخرج من مكانه فى كل سنة أربع مرات وتقام لهذه المناسبة صلاة كبرى تحضرها حامية المدينة ورجال الحكومة بصفة رسمية

وبها عدة قبور اخرى وبقبتها عدة بيارق بعضها اسلامية وبعضها فرنساوية اخذت اثناء حروب نابليون الاول فى أوائل القرن التاسع عشر

ومما زرته أيضاً بهذه المدينة من الآثار القديمة قصر بيلاتوس وهو قصر قديم به كثير من القاشاني وله بستان جميل قد شيده أحد الاشراف فى الجيل السادس عشر للميلاد أثر زيارته لمدينة أورشليم على شكل منزل بيلاتوس الذى كان حاكما على أوشليم وما جاورها وقت ظهور المسيح عليه السلام

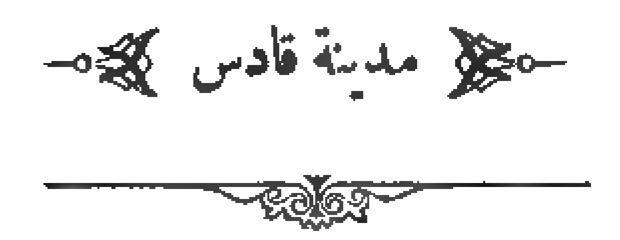
وملجأ العجزة المسمى (Caridad) ومعناها البر وبه بعض الواح من رسم مور يلليو الشهير

هذا ومن آثار العرب القناة التى كانت تجلب الماء الى المدينة من بعد سبعة وثلاثين كيلو متراً وهى باقية على حالها الى الان تشهد بأن العرب فاقوا الرومانيين فى هذ الباب كما فاقوهم فى غيره ومما يجدر بالغريب ان لا يهمل زيارته معمل الدخان الشهير بهذه المدينة خصوصاً عند خروج الشغالات فان به نحو ثلاثة آلاف بنتاً للف السجاير متفقات فى الملبس وكلهن يضعن على اكتافهن الشيلان الزاهية الالوان وفى شعورهن الازهار بدل العصائب والبرانيط

(تاريخها) لا يعلم تاريخ تأسيس مدينة اشبيلية بالضبط ويقال ان مؤسسها هو هرقل أحد جبابرة اليونان القدماء ثم امتلكها تباعا الفينقيون واليونان والقرطاجيون والرومان ولما أغار أهل الشمال على المملكة الرومانية صارت عاصمة لمملكة قوطية واخيراً فتحها العرب فى القرن الثامن المسيحى وظلت من أهم عواصمهم حتى فتحها فردينان الثالث في ١٩ نوفمبر سنة ١٢٤٨ بعد ان

ضعف حال المسلمين عقب واقعة العقاب المشهورة التى هزم فيها المسلمون فى ٦ يوليه سنة ١٢١٢ وتسمى فى كتب الافرنج واقعة (La Tnavas desolosa) ولما فتحها الافرنج تركها أهلها قاعا صفصفاً فنقل ملك الاسپان السكان اليها من البلاد الاخرى





مدينة قادس

بعد ان قضيت باشبيلية يوم السبت كله على الاقدام قضيت ليلة الاحد فى الاستراحة وفى صباح الاحد سافرت الى قادس وكان فى نيتى ان ازور أثناء مرورى مدينة خرز (Jérès) الشهيرة بمعاصر النبيذ وعولت على ذلك فعلا واخذت تذكرة السفر اليها فقط ولكنى تعرفت فى أثناء الطريق بتاجر اسپانى اخبرني بان جميع هذه المعاصر تقفل يوم الاحد ولما تحققت ذلك عند وصولى اليها لم أنزل بها بل سرت توا الى قادس بعد ان دفعت فرق الاجرة فوصلت قادس بعد الظهر بقليل

قادس مدينة جميلة نظيفة قائمة على جزيرة بالاقيانوس الاطلانطيقى ويصل بينها وبين الارض القارة جسران عظيمان احدهما للسكة الحديد والاخر للعربات والمارين على الاقدام

وكان يحيط بها من جهة البحر سور عظيم باق منه للآن جزؤ ليس بالقليل وانشئت مكان الجزء الذي هدم منه البساتين والمنتزهات العمومية واغلب

شوارعها مستقيمة متقاطعة وفى نقط تقاطعها الميادين المتسمة وكلها مرصوصة بالحجر الازرق أو بالاسفلت

وبما ان الليلة التى قضيتها بها كانت ليلة الأثنين اى مساء الاحد فكانت الشوارع وبالاخص القريبة من البحر وجميع المتنزهات غاصة بالمتفسحين والمتفسحات بالازياء الاندلسية اللطيفة وفى المساء صدحت الموسيق بالميدان الذى يشرف عليه فندق فرنسا الذى نزلت به وهو منار بالكهرباء كباقى جهات المدينة فكان المنظر بالليل اجمل منه بالنهار

وصادف يوم وصولى وصول الاسطول الالماني الاتى لمقابلة المرشال والدرسى عند عودته من الصين فكانت المدينة مفعمة بحارة وضباط الالمان حتي كان يخيل للانسان انه فى احدى الثغور الالمانية

وظلت الموسيق تصدح الى مابعد نصف الليل وفى الصباح نزلت الى البحر قاصدا طنجة ومودعا بلاد الاندلس بدون ان اقضى فيها الزمن اللازم لزيارة جميع ماتركه فيها المسلمون من الآثار معللا النفس بالعودة اليها للاقامة بها شهرين او ثلاثة على الاقل لاشبع النظر من محاسنها الطبيعية والنفس من ذكرى ماضى الاسلام والمسلمين



﴿ طنجة ومملكة مراكش ﴾

بعد ان متعت الطرف بآثار الاسلام والمسلمين وتحسرت على هاتيك الدول التي زالت وعفت آثارها وزرت غرناطة وحمراها وقرطبة وجامعها واشبيلية وقصرها أردت ان أمر بمدينة طنجة أهم ثغور الدولة المراكشية لأتحقق من الفرق الكائن بين مسلمي الدول الغابرة ومسلمي هذه الدولة التي حافظت على استقلالها للآن رغماً عن اكتناف الفرنساويين لها من الغرب والجنوب وسعي الدول فى اقتسامها . فركبت البحر من ثغر قادس في صبيحة يوم الاثنين ٢٩ يوليه الساعه السابعة صباحاً فسارت بنا السفينة باسم الله مجراها ميممة جانب ثغر طنجة وكان الريح شديداً بسبب القرب من مضيق جبل طارق فوصلنا اليها في نحو الساعة الاولى بعد الظهر وما كادت السفينة تلقي مراسيها حتى أحاط بنا رجال القوارب لينقلونا الى البر بما ان السفن لا ترسوا على البحر لعدم وجود العمق الكافى فى الميناء وعدم اهتمام الحكومة المراكشية بتعميقها

وبمجرد وصولنا الى البر مررنا من محل الكمرك بدون كثير عناء ثم قصدنا الفندق على الاقدام لعدم وجود عربات بالمدينة على الاطلاق وبعد ان استرحنا قليلاً قصدنا المرور في أهم شوارعها والتفرج على أسواقها وما بها من تحف ولذلك استصحبت دليلاً من أهل البلاد كنت أفهم عربيته بكل مشقة كما كان لا يكاد يفهم شيئاً من عربيتي فكنا نتفاهم بالاشارة أو ببعض كلمات فرنساوية أو أسبانية مما التقطته في اسبانيا

طنجة مدينة صغيرة لايزيد عدد سكانها عن ثلاثين الفاً وبها كثير من الاسبان وبيدهم تجارة الصادر والوارد وأغلب سكانها الاصليين من الاسرائيليين الذين لايمتازون في معيشتهم ومنهم عن المراكشيين الا بسواد ملابسهم ولبسهم الطواقي السوداء بدل العمامة . ومن اغنى وأثرى منهم اتخذ الملابس الافرنكية وبها عدد قليل من السوريين

المدينة قائمة على منحدر جبل فشوارعها صاعدة نازلة وأرضها مرصوصة بقطع صغيرة من الحجارة غير منتظمة تؤلم الارجل ولا يمكن السير بها الا لحمير وبغال هذه البلاد المتعودة على مثل هذه الطرق . والمدينة في غاية القذارة ولا أثر للكنس والرش بها الا في بعض الجهات التي يسكنها الافرنج والقناصل لتشكيلهم لجنة دولية أشبه شيء بمجلس بلدي للقيام بمثل هذه المهام . أما الحكومة المحلية فلا عمل لها الا تحصيل عوائد الكمرك بكيفية غير منتظمة وتحصيل الاموال من الاهالى الوطنيين . ومن الغريب انه يوجد بهذه المدينة مع مافيها من تأخر وانحطاط شركة للنور الكهربائى وأخرى للتلفون لكن لايوجد بين مشتركيها أحد من الاهالى ولا حاكم المدينة وقد وضعت اللجنة الدولية بعض القناديل الكهربائية بالشوارع الآهلة بالافرنج أو التي قبل ساكنوها دفع شيء من أجرة التنوير ومصاريفه

أما سوق المدينة فلا تمتاز عن أسواق بعض المدن الصغيرة بمصر . وبخارجها سوق عمومية لاهل الريف . والمدينة محاطة من جهتي البر والبحر بأسوار قديمة عليها بعض المدافع التي لاتصد مهاجماً ولا تمنع أى عدو أراد التطاول عليها خصوصاً وان لاجنود تحسن استعمالها . وبأعلا المدينة القلعة التي يسمونها في الغرب (القصبة) وبها منزل الوالى ويسمونه الباشا وكيله

الخليفة وهى محاطة بسور خصوصى عليه بعض المدافع القديمة وتقفل أبواب هذه القلعة ليلا على من بها . وينقطع كل اتصال بينها وبين المدينة . وشوارع هذه القصبة ضيقة جداً ومتعرجة بكيفية تفوق التصور

ولقد أخذت المدينة فى الاتساع خارج الاسوار القديمة الا ان أغلب المساكن التى خارج السور هى للافرنج والقناصل وأغنياء الاسرائيليين

وبضواحى المدينة بعض المزارع والبساتين وكلها مهملة غير معتنى بها . والطرق الموصلة بينها وبين المدينة تكاد لا توجد وبالاختصار فالمدينة متأخرة جداً تدل حالها على تأخر الدولة المراكشية

ومما يدل على كسل جزء ليس بقليل من الاهالى واحتقارهم لكل ما يسمي عملا انى سمعت طبلا وزمراً فظننت انه احتفال وأردت التفرج عليه فأخبرت أن هذه الجلبة لشخص شريف يدور على الابواب بالطبل والزمر للطلب والسؤال بما أن الاشراف بتلك البلاد لا يشتغلون مطلقاً بل يعيشون من الصدقات ثم سمعت بعد ذلك ممن يوثق به أن الحكومة المراكشية تدفع قرشين صاغاً لكل من يدعى الشرف حتى لا يشتغل . فهل بعد ذلك دليل على التأخر والانحطاط . رب ان هذا لبلاء عظيم

وقد قابلت حاكم المدينة (الباشا) فأحسن مقابلتى الا ان عربيته معجمة جدا لدرجة انا كنا نتكلم معا باللغة العربية لكن بواسطة قائد الطوبجية واسمه القائد ادريس الذى كان يترجم بيننا من العربية الى العربية لانه زار القطر المصرى فى سنة ١٣٠٩ وأقام بها بعض أشهر تمرن فيها على لهجة المصريين وهذا القائد لا يتجاوز الاربعين . تعلم فى مدارس الانكليز العسكرية وأخبرني انه كان مع دولة الامير ابراهيم باشا حلمى عم الجناب العالى الخديوى وقد

سمح لى الباشا بزيارة السراى السلطانية بالقصبة والجامع الملاصق لها فألفيت السراى على الطراز العربى الموجود بالحمراء بغرناطة وبها كثير من الاعمدة الرخامية القديمة وكثير من القاشانى والفسيفساء التى يسمونها فى لغتهم (زليج) وبعد ذلك قابلت ضابطا فرنساويا من رتبة صاغ مستخدما بحكومة مراكش لتدريب الطوبجية مع ضابط آخر فرنساوى وثالث انكليزى لتدريب المشاة وقابلت كذلك خليفة الباشا ولقد أمكننى ان أقف من محادثتى معهم جميعا على حالة الحكومة المراكشية واليك البيان :

حكومة مراكش ويسمونها المخزن تنحصر فى شخص السلطان مولاى عبد العزيز ورجال بطانته المحيطين به ويلقب بعضهم بلقب وزير لكن فى الحقيقة لاوزارة ولا نظام . وحكام الجهات يسمون قوادا ويلقبون بباشا وهذا اللقب لايفيد وجود رتب سابقة عليها كما هو الحال بالدولة العلية بل هو لقب يعطى لمن يعين حاكما ويسلب منه عند عزله . وأهم شئ فى الحكومة وهو الجيش لا وجود له تقريبا وهو بحسب النظام الموضوع له ينقسم الى ثلاث فرق : الطوبجية وهى مشكلة من أربعة طوابير كل طابور مؤلف من ألف رجل لكن لا يوجد منهم تحت السلاح ربع هذ القدر وقائدهم العام ضابط فرنساوى من رتبة صاغ . والمشاة وقائدهم انكليزى . والخيالة ولا نظام لهم. فان كل مراكشى فى الحقيقة خيال . ورتب الجيش ثلاثة : « المقدم » وهي تعادل صف ضابط . ثم « قائد المائة » وهي تعادل يوزباشى . وأخيراً « قائد الرحى » وهي تعادل الصاغ . ولا رتبة فوق ذلك كما أنه لاملابس أوعلامات مخصوصة تميز العسكرى عن القائد بل الكل بالملابس العربية المعروفة والطربوش المغربى باشكال مختلفة . أما القيادة العامة فتعطى عند

ارسال أى حملة لمعاقبة احدى القبائل أو لتحصيل الضرائب لاحد رجال المخزن ولو لم يكن عسكرياً . ومما يوجب الاسف أن تعليم الجند بيد ضباط من أكثر الدول طمعاً فى امتلاك البلاد خصوصاً فرنسا التى تجد انها ذات الحق الاول فى امتلاكها بحق الشفعة ولا يخطر ببال مولاى عبد العزيز أن يستعين على ترتيب جيوشه بضباط الدولة العلية الذين شهد لهم العدو قبل الصديق بالدربة والشهامة فضلا عن اتحاد الصالح والدين . لكن هو التفرق والتخاذل الذى سبب ضياع بلاد الاندلس والذي سيكون سبباً فى ضياع مراكش وغيرها من بلاد الاسلام فلا حول ولا قوة الا بالله

أما البحرية فتكاد لا توجد اذان دونا نمها مؤلفة من مركبين صنعتا فى إيطاليا احداهما تسمى « البشير » والأخرى « حسنيه » وقد عرضت هذه الاخيرة للبيع فدفع فيها تسعون ألف فرنك . ويقود الأخرى ضابط ألمانى يوجد تحت رئاسته ضابط عربى يقال انه تلقى بعض مبادي العلوم فى أوروبا

التعليم العصرى لا أثر له ببلاد مراكش بالمرة والتعليم الديني ضعيف جداً وبمدينة فاس فقط بجامع القراوين وبجامع سيدى ادريس جد العائلة الحاكمة الاعلى ولا يوجد بأوروبا من الشبان بقصد التعلم الا شابان ببلاد إيطاليا يستعدان لدخول المدرسة البحرية . والبلاد فى حالة همجية توجب الحزن فلا مصلحة للبريد بل البوسطة فى أيدى البوسطات الاجنبية وهى المانية واسبانية وانكليزية ولا تلغراف الا بين أوروبا وبعض الثغور ولا أثر له بداخلية البلاد ولا طرق لسير العربات غير (المدقات) البسيطة لسير القوافل مع عدم الامن

والاغرب من كل ذلك انه لا يوجد بالمملكة جريدة عربية الى الآن

مع وجود جريدة فرنساوية وثانية اسبانية وثالثة انكليزية وكلها بطنجة بل الاغرب من ذلك ان لامطبعة عربيــة فى جميع المملكة ولا لطبع الاوامر والمنشورات ان كانت ثمت أوامر تصـدر فى أوراق أو منشورات تنشر الى الجهات . وهم يجلبون ما يلزمهم من الـكتب من بلاد مصر والشام

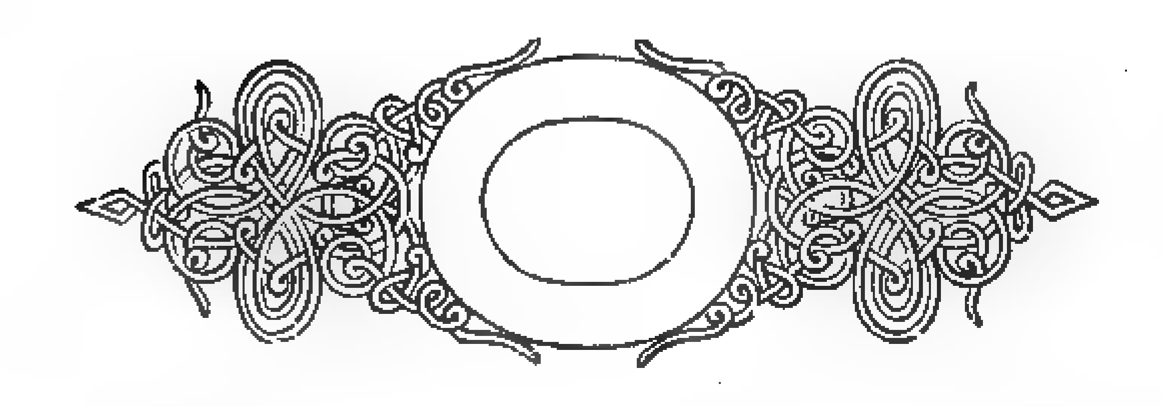
والاجانب متمتعون بالامتيازات الدولية كما هو الحال فى مصر بل أشد على الحـكومة المحلية لدرجة ان للاسبان بوليس مخصوص لضبط من يرتكب إثماً من الاسبانيين أو من هم تحت حمايتهم من اليهود ولا سلطة للحكومة المحلية على الاجانب بالمرة الا انه من جهة أخرى لا يسمح لهؤلاء الاجانب بالاقامة فى داخليـة البلاد فهم والقناصل والسفراء فى البلاد الساحليـة وبالاخص فى طنجة . وللمحزن (الحـكومة) بطنجة مندوب سام لمخابرة القناصل فى المسائل الدولية بالنيابة عن جميع النظارات ثم يعرض النتيجة على المخزن بفاس أو بمراكش

والقبائل فى مراكش تنقسم قسمين : قسم يقـال له قبائل المخزن وهي المعافاة من دفـع الضرائب بشرط أن يكون كل رجالها تحت طلب الحـكومة للدخول فى الجندية . والقسم الثانى هو القائم بدفع الضرائب . والضرائب الرسـمية عندهم اثنتان : العشـور وهي عشر المحصول . والزكاة وهى ربع العشر أي اثنين ونصـف فى المائة . لكن الجارى تحصـيله فى الحقيـقة هو أضعاف ذلك ومن القبائل على حـد سواء الا أن أغلب القبائل لاتدفع ما يطلب منها الا مكرهة . وهناك ضريبة أخرى تسمى الهدية وهي غير رسمية يقدمها القواد الى السلطان فى كل سنة مرتين أو ثلاثة . وهم بالطبع يجمعونها من الاهالى أضعافاً مضاعفة

وقد اختلف فى عدد سكان مراكش لكن الذى سمعته من الضابط الفرنساوى الذى ساح فى أغلب جهاتها عدة سنوات انهم لا يزيدون عن عشرة ملايين بخلاف ما يذكره بعض الجغرافيين وذلك لعدم عمل احصاء رسمى فجميع هذه التقديرات تخمينية لا دليل يؤيدها

وبالاختصار فبكل أسف أقول أن من يريد أن يرى بعينه كيف تموت الامم ولا تبدى أي حركة لحفظ كيانها فليتوجه الى مراكش خصوصاً بعد أن يزور اسبانيا ويمر بقادس اذ الفرق ظاهر بين الامتين : الحياة من جهة. والنزع من جهة أخرى ولا يفصل بينهما الا مسافة ست ساعات وذلك مع ما هي عليه اسبانيا من التأخر بالنسبة لغيرها ولا يغتر القارئ بما يقرأ فى هذه الأيام فى الجرائد من ارسال الوفود الى عواصم أوروبا . ولا يظن ان ذلك يدل على حياة جديدة بل هذه الوفود ترسل بناء على طلب سفراء الدول للحصول على بعض امتيازات أو لنهو بعض المشاكل السياسية

فاذا لم تنتبه الحكومة المراكشية لحالها وتفيق من نعاسها وتصلح داخليتها وتنشئ لها جيشاً قوياً وتوثق روابط الاتحاد بينها وبين الدولة الملية (التى لا سفير لها فى هاتيك البلاد) فقل على استقلالها السلام



﴿ من طنجة الى وهران ﴾

بعد ان زرت مدينة طنجه وجمعت ما أمكنني جمعه على بلاد مراكش من المعلومات أردت زيارة بلاد الجزائر لاتحقق مما يدعي الفرنساويون انهم أتوه من الاصلاح وما قاموا به من الاعمال الجسام لتحسين حالة الاهالي المعاشية وتقدمهم في مراقي التمدن والسعادة فما راء كمن سمع

أبحرت من ثغر طنجه ظهر يوم الاربعاء ٣١ يوليه سنة ١٩٠١ على باخرة فرنساوية تسمى (Oasis) أى الواحة. وكان البحر هائجاً والامواج تتلاطم بشدة لم أرها في اسفاري من قبل. ولكون السفينة راسية على بعد نحو نصف ساعة من الساحل لعدم وجود العمق الكافي لحملها بسبب عدم استعداد الميناء اضطررت للوصول اليها على زورق صغير أنا وبعض الركاب . فكانت الامواج تحملنا الى ارتفاع نحو عشرة أمتار ثم تهبط بنا الى ضعف ذلك بحالة مريعة ووصل رشاش الماء الى ملابسنا بل امتلأ قاع الفلوكة ماء . وسرنا بهذه الحالة نحو أربعين دقيقة . ولما وصلنا الى الباخرة تعلقنا بسلمها بكل صعوبة بمساعدة رجالها فحمدنا الله على وصولنا سالمين وكان معنا سائح فرنساوي وامرأته وغلام صغير لايتجاوز الرابعة من عمره فلا تسل عما اعتور الأم من الجزع على ولدها وفلذة كبدها

أقلعت بنا الباخرة في الساعة الثالثة بعد الظهر فمررنا بعد نحو ساعة من بوغاز جبل طارق وتجلت امام أعيننا تلك الصخرة الشماء التي جعلها الانكليز أقوى حصن وأمنع رباط في العالم . لكن من سوء الحظ لم تسمح لنا خطة

السفينة بزيارتها فتركناها آسفين على ضياع تلك الفرصة الثمينة . وفي صباح أول أغسطس وصلنا الى « مليليه » احدى المحاط الاسبانيـة على ساحل مراكش الشمالي وألقت السفينة مراسيها في عرض البحر . وكنت أود زيارتها أثناء وقوف السفينة لتفريغ وشحن البضائع لولاهياج البحرواشتداد الريح . لذلك فضلت البقاء قاضياً الوقت في التفرج على كيفية الشحن والتفريغ . وكان بالسفينة خمسون ثوراً صار انزالها الى المواعين . وذلك بأن يربط الثور بحبل متين يمر خلف قرنيه . ثم يرفع بالآلة الرافعة البخارية (عيار) من قاع السفينة الى سطحها . ثم يدلي الى الماعون . ومما يوجب الاستغراب انهذه العملية لاتستغرق زيادة عن دقيقة واحدة .

وثغر مايلية هو أهم مراكز إسبانيا على ساحل مراكش .ويبلغ عدد سكانه ٢١٠٠ فقط . وبه نحو خمسة آلاف جندي لحمايته من مهاجمة المراكشيين وخصوصاً قبائل الريف المحيطة به من كل جانب بحيث لايمكن لاسباني أو غيره من الاوروبيين تعدى آخر استحكام . ولا أدري مافائدة إسبانيا من تمسكها باحتلال هذه النقطة بعد ضياع مستعمراتها كلها بأمريكا والاقيانوسية : أتريدان تجعلهاقاعدة لتوغلها في بلاد مراكش فاتحةمع وجود فرنسا لها بالمرصاد وادعائها حق الشفعة عليها وطموح أنظار ألمانيا اليهاوتشوق الانكليز لاحتلال طنجه ليكون بيدها شاطئ بوغاز جبل طارق ؟ .. أظن ان لافائدة لاسبانيا مطلقاً من احتلال هذه النقطة التي لاتجارة ولا زراعة بها . والاوفق لصالحها ان تترك الاستعمار وشأنه وتصرف اهتمامها في اصلاح داخليتها فهي أولي بالالتفات وأحق بالاصلاح

أقلعت السفينة بعد الظهر من مليلية قاصدة مدينة (غزوات) ببلاد

الجزائر (ويسميها الفرنساويون نمور « Nemour » كما هي عادتهم في استبدال الاسماء العربيـة بأسماء أفرنجية محضة) لـكن بسبب هياج البحر استحسن القبطان أن نقضى الليل في الخليج الواقع بين ساحل الجزائر وسلسلة جزائر (زفارين) «Zaffarin» [1] فتمنع هذه الجزائر الريح من الوصول الينا وهكذا فعل فقضينا الليل بكل سكينة . وبينما كنا نمشى على ظهر الباخرة اذ لاحت لنا دونمـة حربية فى عرض البحر مؤلفة من نحو عشر سفن عظيمة تتبادل الاشارات بالانوار الـكهربائية وترسل أشعتها الى البر فتجعل الليل نهاراً . وبالاستعلام من القبطان أخبرنا انها دونمـة طولون الفرنساوية تمرن على المناورات الحربية وتمر من بوغاز جبل طارق مطفئة أنوارها فلا يراها الانكليز

أقلعت السفينة الى ثغر غزوات (نمور) فوصلناه فى الساعة العاشرة . ولما كان لابد للسفينة من البقاء بها نحو خمس ساعات لشحن ثلاثة آلاف كيس من القمح والشعير رأيت مع بعض رفاقي أن ننزل الى البر لنرى الفرق بين مدن الجزائر ومدينة طنجه . ولدى وصولنا الى البر رأينا القرية في حركة عظيمة لان اليوم كان يوم سوق . والمدينـة عبارة عن شارع واحد على طول البحر وبعض شوارع صغيرة عمودية عليه . وهي في غاية النظافة . وجل سكانها من الفرنساويين . وعلى بعـد كيلو مترين منها أثر أقامـه الفرنساويون تذكاراً لثلاثمائة عسكرى قتلوا فى واقعة مهمة بينهم وبين جنود السـيد عبد القادر

(١) قد أخـبرني بعض من لهم المام بجغرافية العرب ان أصل اسم هذه الجزائر (جعفريين) أو جزائر جعفر ولا أدرى من هو جعفر الذى سميت هذه الجزائر باسمه وهي أيضاً من ممتلكات اسبانيا وبأكبرها سجن كبير ويسميها الاسبان : خفارين بالخاء المعلوم لانهم ينطقون حرف « ز » خاء

بظل الجزائر المشهور . وقد قصدنا هذه النقطة فوجدناها عبارة عن مضيق بين جبلين يصعب بل يستحيل على أى جيش المرور منه اذا كان على قمة الجبل عشرون نفراً لا غير

وكان ذلك اليوم موعد انعقاد جلسة محكمة الصلح فدخلت قاعتها ووجدت القاضي يسمع القضايا ويناقش الشهود بواسطة المترجم . وكلها قضايا صغيرة بين صغار الفلاحين والمستعمرين وأحكامه على حسب نصوص القانون الفرنساوى طبعا .

وبعد الظهر قامت السفينة فوصلت مدينة (وهران) فى الساعة الواحدة بعد نصف الليل أى من صباح يوم السبت ٣ اغسطس سنة ١٩٠١ وبمجرد وصولها أتى أحد رجال البوليس وسمح للمسافرين الفرنساويين بالنزول بدون أدني صعوبة ثم فحص جوازات الاجانب من مراكشيين واسبان . وبعد ذلك سألني عن جوازى فأجبته بأنى لم أستصحب جوازا لاني أسافر فى كل عام تقريبا الى فرنسا بلا جواز . وبما ان عمالة الجزائر أرض فرنساوية فلم ار ضرورة لأخذ جواز . فقال لى ان الاوامر التى لديه لاتسمح بنزول الاجانب الى البر الا اذا كان بيدهم جواز معلم عليه من قنصل فرنسا المعين ببلادهم. وعلى ذلك اضطررت للبقاء على ظهر الباخرة للصباح وفى الساعة السابعة أتى مأمور البوليس فأعدت عليه ما قلته لرجله فى الليل فناقشني واطلع على بطاقة زيارتي وعلى بعض أوراق أخرى تؤيد شخصيتي وأخيراً سمح لى بالنزول الى البر

وقد علمت بعد ذلك ان هذا التشديد يجرونه مع المسلمين على الاخص وانه لابد وان يكون أخبر مدير الجهة « بربفيه » بالليل واستحصل منه على الاذن بالتصريح لى بالنزول الى البر بطريقة استثنائية . وقد تحققت ذلك لدى

اطلاعى على الاوامر المختصة بمراقبة المسلمين الاجانب كما سيجيء فى موضعه

كان معنا بالباخرة ضابط فرنساوى من رتبة يوزباشى اسمه الموسيو (لاراس) تجاذبت معه أطراف الحديث فى موضوع الاستعمار وغيره فأفادنى كثيراً ثم نصحنى بمقابلة المسيو (موليبراس) أستاذ اللغة العربية بمدينة وهران حيث له اطلاع على أحوال العرب ودرجة انتشار التعليم فيما بينهم وميلهم اليه الى غير ذلك مما يهم كل باحث الوقوف عليه . فبمجرد وصولى الى الفندق سألت عن محل اقامته وقصدت زيارته فوجدته عالما حقيقة بعلوم اللغة العربية عارفا لدقائقها الا ان لفظه مغربى محض . ولذلك كنت أخاطبه بالفرنساوية لسهولة التفاهم . وله عدة مؤلفات فى اللغة العربية . وقد ساح بلاد مراكش وكتب عليها كتابا مفيداً للغاية ظهر منه الجزآن : الاول والثانى وقد أهدانى منهما نسخة الا انه غير عالم بما ينشر كل يوم من التآليف العديدة باللغة العربية بالبلاد العربية وعلى الخصوص بالقطر المصرى الذى هو الآن مركز حركة تقدم لغتنا الشريفة العربية بفضل جامعها الازهر أبقاه الله

﴿ من وهران الى تلمسان ﴾

مدينة وهران من أهم ثغور القطر الجزائرى ويبلغ عدد سكانها ٧٥ الفاً جلهم من الفرنساويين . وهى قائمة على منحدر جبل شاهق وطرقها كلها مائلة ميلا شديداً لكنها ممهدة وتسير عليها عربات الخيول وعربات الترامواى

الكهربائي بكل سهولة . فالفرق بينها وبين طنجة كالفرق بين السماء والارض أو أكثر من ذلك . فان موقعهما واحد تقريباً لكن طنجة باقية كما كانت من نحو ثلاثمائة سنة بدون ان تخطو خطوة الى الامام أو تستفيد من الاختراعات العصرية ووهران سائرة سير المدن الاوربية تماما الا ان هذا النظام لم يكن فى فائدة الاهالى مطلقاً بما انهم قاطنون فى قرية خصوصية فى طرف المدينة ولم يبق منهم أحد فى المدينة الاصلية وكل من بها من العرب شيالون فى المينا أو خادمون عند الافرنج أو أصحاب حوانيت صغيرة حقيرة فلا يوجد بينهم تاجر عظيم أو متوسط ولا صاحب معمل ولا موظف (بالطبع) ولا عالم ولا كاتب ولا ولا .. من ضروريات العمران فحالهم فى تأخر مستمر والفقر فى زيادة والتعاسة فى نمو

ولم يبق فى المدينة من الجوامع التى تقام فيها الخطبة الا جامع واحد يسمى جامع الباشا قائم فى وسط حي الافرنج . ويوجد بقرية العرب بعض زوايا صغيرة لاقامة الاوقات الخمس . أما باقى الجوامع القديمة فحول بعضها الى كنائس وبعضها الى مخازن أوما شاكل . وقد أخبرت ان الحكومة أرادت ان تهدم جامع الباشا لوجوده بين منازل الافرنج فيقلقهم صوت المؤذن وأن تبنى لهم جامعاً خلافه فى حيهم الا انها عدلت عن هذا المشروع لتذمر الاهالي واظهارهم الاستياء من هذا العمل المغاير لحرية الاديان التى تفتخر فرنسا بمنحها لجميع رعاياها على السواء .

وقد زرت هذا الجامع الوحيد فوجدته متيناً وفى غاية من النظافة وبه مقصورة صغيرة معدة للمفتى . وقد قابلت المفتى الحالى واسمه سيدى على بن عبد الرحمن فاحسن مقابلتى وأخذ يستعلم منى عن أحوال اخوانه المسلمين بمصر وحال

العلم بها ويئن من تأخر العلوم الاسلامية بالقطر الجزائرى وعدم اقبال الاهالى على طلب العلم حيث قال فى أثناء حديثه : (قد قل الطالب والمطلوب حتى نقص عددمن بالجامع الآن الى تسمة فقط بعد أن كان يزيد عن المائة وما ذلك الا من فقر الاهالى واضطرارهم للاشتغال بطلب المعاش من أخشن الحرف وأدناها وعدم وجود من تسمح له حالته المعاشية بالانقطاع لطلب العلم) ثم تحادثنا فى أمور شتى ومواضع مختلفة دلت على تضلع الرجل فى العلوم العربية وتشوقه للمزيد منها

هذا ولما أخبرت المسيو موليراس بقصدى السفر الى تلمسان ثم الى عاصمة القطر الجزائرى وانى لا أعرف بهما أحدا زودنى بخطابين أحدهما الى السيد شعيب بن عبد الله قاضى تلمسان والآخر الى المسيو لوسيانى سكرتير حاكم الجزائر العام وأوصاهما فيهما بمساعدتى على جميع ما أريده من الاستعلامات عن حالة البلاد وأهليها وقدخدمنى بذلك أجل خدمة خصوصاً بجوابه الثانى بما ان المسلمين يحذرون من مقابلة من يأتي بلادهم من اخوانهم من البلاد الاخري إلا اذا علموا ان الحكومة ورجالها غير ناقين من وجود هذا المسلم الاجنبي وبالاخص اذا كان تركيا أو مصريا فان التركي يعتبر لدى القوم من رجال جلالة السلطان المكلفين بنشر نفوذه والحث على التعلق به وبالرابطة الاسلامية التى تجمع كافة مسلمى الارض كأن هذه الرابطة تحتاج الى أعوان أوروّاد لتقويتها وليست هى من شروط الاسلام الاصلية وقواعده الاساسية تولد مع المسلم وتنمو بنموه وترافقه طول حياته

أما المصرى فتخشى مخالطته للجزائريين لما تعوده فى بلاده على حرية التكلم والكتابة والانتقاد العلنى . ولذلك فكل مسلم يطأ البلاد الجزائرية

مراقب أشد المراقبة بكيفية غير محسوسة . وانى ممتقد انه لولا الجواب الذى زودني به المسيو موليراس الى المسيو لوسيانى ومقابلتى له بمجرد وصولى الى مدينة الجزائر لما اجترأ أحد من مسلمى الجزائر على الاجتماع بى أومقابلتي مقابلة بسيطة

﴿ مدينة تلمسان ﴾

بعد ان أقمت بوهران يوماً وبعض يوم سافرت الى تلمسان يوم الاحد ٤ أغسطس في الساعة الرابعة بعد الظهر فوصلتها بعد تمام العاشرة ولاحظت أثناء سير الوابور ان أغلب الاراضي مزروعة كروماً وهي بالطبع للافرنج وان أغلب أسماء المحطات أسماء أفرنجية محضة

قضيت الليل في أوتيل دي فرانس وفي الصباح قصدت منزل حضرة القاضي شعيب بن عبد الله وقدمت له جواب المسيو موليراس فرحب بي ثم رافقني الى دار المحكمة وهى ملاصقة للجامع الكبير وأرسل فاستدعى أحد أولاده واسمه سيدي عبد السلام ليرافقنى طول النهار ويطلعني على آثار المدينة وجوامعها . أما السيد شعيب فشيخ جليل في نحو الستين عليه سيما الوقار والاحترام طلق المحيا حسن الاستقبال أدوب أديب يغار على الاسلام والمسلمين وولده السيد عبد السلام من متخرجي مدرسة الجزائر العليا وهو موظف بوظيفة عادل بقرية . ويحسن التكلم بالفرنساوية وله المام تام بكل مايختص بأحوال بلاده وله مؤلف في فلسفة الديانة الاسلامية قدمه الى

مؤتمر المستعمرات بمعرض باريس العام سنة ١٩٠٠ حيث كان المسلم الوحيد به .
وقد أهداني نسخة منه فله جزيل الشكر . وقد سألني حضرة القاضي عن
المرحوم أمين باشا فكري لانه كان مع المرحوم والده والاستاذ الشيخ حمزة
فتح الله في مؤتمر المستشرقين بمدينة استكلم عاصمة السويد سنة ١٨٨٩ ولما
أخبرته بوفاته حزن عليه حزناً شديداً وأخذ يعدد مناقبه ومناقب والده
المرحوم عبد الله باشا فكري وسألني كذلك عن الاستاذ الشيخ حمزة فتح
الله . ثم دعاني لتناول طعام الغداء في داره بما اني كنت عازماً على السفر
وقت الغروب الى مدينة الجزائر لأقضى الليل بالسكة الحديد اتقاء حر النهار
ومنزل الشيخ كمنازل الاندلس أى انه يحتوى على فناء تحيط به العواميد
ووسطه مكشوف وبه فسقية يجري بها الماء ليل نهار وأرضه مغطاة بالقاشاني
وبدائره ثلاث أود وبالجهة الرابعة باب الحريم . وقد وجدت بأودة الاستقبال
لوحا صغيرا من الخشب مكتوب عليه هذا البيت

يا داخلا منزلي الله يرعاك　　　ابشر بكل المنى من عند مولاك

وهو أحسن ما يكتب في مثل هذه القاعة ولما أتى وقت الطعام وجدت
الخوان مهيئاً على الطراز الاوروبي فطلبت منه أن تكون المائدة على الطراز
العربي المحض فانشرح من هذا الطلب وأمر باعدادها في أحد جوانب الفناء
ففرش المكان بالمراتب الرقيقة للجلوس ووضع أمامنا « صينية » من النحاس
الاصفر المنقوش وأتى بالاطعمة وهي من أفخر ماتشتهى النفس . وختم الطعام
« بالكسكسى » المحلى بالسكر كما يختم الطعام عندنا بالارز . وبعد ذا أكلنا من الفواكه
مالذ وطاب بين تين وعنب وخوخ وكمثرى . ثم رفعت المائدة وأتى لنا
بطشت وابريق من النحاس الاصفر لكنهما على غير الشكل المألوف عندنا .

وبعد ذلك أحضرت القهوة فشربنا وبعد قليل أحضر الشاى وفي كل كوب قليل من ورق النعناع الاخضر لتعطيره . وكان معنا على المائدة ولده سيدي عبد السلام وولد آخر أسمه سيدي أحمد موظف بمحكمة تلمسان الشرعية . وفي أثناء الطعام تجاذبنا أطراف الحديث القديم منه والحديث خصوصاً فيما يختص بالجزائر عموماً ومدينة تلمسان خصوصاً ماضيها وحاضرها ومستقبلها فأفادني كثيراً بمعلوماته وأخذ يسألني عن مصر وأحوالها فأفدته بقدر الامكان

وبعد ذلك ركبت العربة مع ولده السيد عبد السلام وتوجهنا الى خارج المدينة لتمتيع الطرف بمناظرها الجميلة وحدائقها الغناء واستنشاق عليل هواها وقد وصلنا في فسحتنا هذه الى جهة (الوريط) وهي محرفة عن (الوريد) سميت بهذا الاسم على غير قاعدة لكثرته بها . وهي نقطة لطيفة في سفح جبل به مغارة يخرج منها نهر صغير ماؤه في غاية الصفاء والبرودة وبها قهوة عربية يستريح بها المتفسحون الذين يقصدونها من مدينة تلمسان . وبأعلاها يمر خط السكة الحديد الى وهران وعلى هذا النهر قنطرة حديدية لطيفة

مدينة تلمسان من أهم مدن القطر الجزائري اذ يبلغ عدد سكانها ثلاثة وثلاثين الفاً لا يوجد بينهم أكثر من ستة آلاف من الفرنساويين ونحو الفين من اليهود ولم تزل حافظة لشكلها العربي الاصلي وبها كثير من العلماء والتجار أصحاب الثروة الواسعة . وبها عائلات قديمة جداً وعريقة في المجد والشرف ولذلك أسباب أهمها : (أولا) عدم وجود الفرنساويين بها بكثرة وبالتالي قلة مزاحمة العنصر القاهر للعنصر المغلوب . (ثانياً) عدم صلاحية طقسها لاقامة ونمو العنصر الاوروبي لزيادة حرها في الصيف وشدة برودتها في الشتاء . (ثالثاً) لقربها من الصحراء ومن الحدود المراكشية . و (أخيراً) بسبب

مهاجرة كثير من أهالي مدينة الجزائر ومدينة وهران اليها إبان الفتح لاعتقادهم أن الفرنساويين لا يصلون اليها

وأقدم عائلاتها وأجلها منزلة وأسماها شرفاً وأخلدها مجداً عائلة القاضي سيدى شعيب بن عبد الله المدفونة أجداده في ضريح سيدي أبي مدين الاندلسي الكائن ضريحه وجامعه بأرباض المدينة على بعد نحو عشرين دقيقه بقرية يقال لها العبّاد

وبمدينة تلمسان عدة جوامع قديمة كانت تقام فيها الخطبة الا أنها لا تقام الان الا في الجامع الكبير الموجودة بلصقه المحكمة الشرعية . وهو جامع كبير به صحن متسع وأعمدته من الرخام ومفروش بالزرابي المغربية التي تشبه الابسطة التي تصنع ببني سويف . وتقام كذلك بجامع سيدى أبى مدين . اما باقي الجوامع فتقام فيها الاوقات الخمس فقط ولا جمعة بها . وقصد الحكومة من ذلك اقتصاد مرتب الائمة بما انها صادرت جميع الاوقاف المحبوسة على الجوامع والتكايا والاضرحة وغيرها وتنفق عليها الآن من خزينة الجزائر فهى تجتهد في تقليل هذه الميزانية سنة عن سنة ومن جهة أخرى فقد حظرت حبس شئ عليها فلهذه الاسباب لم يبق بمدن الجزائر من الجوامع الا القليل وعددها آخذ في التناقص فلا الحكومة تنفق عليها بسخاء ولا يمكن الاهالي تشكيل جمعية خيرية لمساعدتها لان تشكيل أى جمعية ولو لعمل خيرى محض محظور على الاهالى ومعاقب بأشد العقوبات الادارية لا (القضائية)

هذا وجامع سيدى مدين قديم جداً وبه منارة عظيمة مغطاة بالقاشاني الاخضر والازرق مثل قبة الضريح وبه باب من البرونز يشبه باب جامع المؤيد بالسكرية بمصر وهو متسع وفي غاية النظافة بهمة ناظره ابن أخ حضرة

القاضي شعيب بن عبد الله وهو شاب متعلم يحسن التكلم بالفرنساوية دعاني لتناول الشاى بمنزله الملاصق للجامع فلبيت دعوته بكل سرور ووجدت منزله مثل منزل حضرة القاضي وبوسطه الماء الجارى وهو ترتيب جميل مناسب للبلاد الحارة كما كانت القيمان الكبرى أكثر ملاءمة لطقس بلادنا فهدمناها واتبعنا النظام الافرنكي في ترتيب قاعات المنازل وهو ترتيب لا يلائم بلادنا لكن دفعنا اليه التقليد الاعمى وحب محاكاة الاجنبي حتى في معيشته الداخلية لدرجة جرّت البعض للقول برفع الحجاب .

وبجوار الجامع وبداخل بابه الكبير ضريح سيدى أبي مدين وهو من علماء الاندلس توفى في اواخر القرن السادس الهجرى (سنة ٥٩٦) وأمام الضريح قاعة متسعة بدائرها قبور عائلة القاضى نساء ورجالا دفنت فيها بطريقة استثنائية لعدم جواز دفن الموتى بالاضرحة وبين المساكن . وبهذه القاعة بئر ماؤها في غاية العذوبة والبرودة ويتبرك القوم بالشرب منها . وبها قطع من القاشاني القديم عليها كتابات بخط جميل يندر وجود مثلها الآن لتأخر هذه الصناعة كما تأخر غيرها من الصنائع في الشرق حيث يأتي القاشاني الآن الى بلاد الجزائر من ايطاليا الا أنه يبعد عن القديم بمراحل

ثم زرنا آثار مدينة المنصورة وهي مدينة قديمة جداً تخربت وعفت آثارها ولم يبق منها الا بقايا من سورها العظيم تدل على سابق مجدها وجزء من منارة مسجدها الجامع ويبلغ ارتفاع هذا الجزء أربعين متراً وهي مربعة كجميع المنارات بالغرب والاندلس وبها كثير من ألواح القاشاني الجميلة وقد اعتنت الحكومة باصلاحها كما حافظت على السور .

وبعد ذلك توجهت الى منزل حضرة القاضي لاودعه فزودني بجواب

لاحد تجار الجزائر واسمه سيدي على با الحداد وبجواب آخر لسيدي حمو مفتي المالكية بمدينة الجزائر الا أنه ذكر لهما في هذين الجوابين اني حامل لجواب من المسيو • وليراس الى جناب سكرتير حاكم الجزائر العام • وذلك كى لايخشيا مقابلتي ويرافقاني أينما أريد رغماً عن العيون والرقباء

ثم ودعته وتشكرت له على ضيافته العربية كما شكرت ولده سيدي عبد السلام على مرافقتي طول النهار للتفرج على آثار المدينة وما بها من جوامع وصوامع • وبعد ذلك ركبت القطار قاصداً مدينة الجزائر وبعد ست ساعات • وصلنا الى محطة (ثليلات) التي غير اسمها الفرنساويون وأطلقوا عليها اسم سانت بارب وبها انتظرت القطار الآتي من وهران • ولما وصل اليها في الساعة ١٠ وربع مساء أخذت عربة نوم وكان الجو معتدلا فقضيت الليل بها بمفردي لحسن الحظ ونمت بها مرتاحاً الى الصباح حيث وصلت الى الجزائر في الساعة السابعة صباحاً • وقبل وصول القطار اليها يسير الخط الحديدي على ساحل البحر مسافة خمسة كيلو مترات فيرى الانسان أمامه مدينة الجزائر كأنه آت من البحر وهو منظر جميل للغاية فان المدينة كأغلب مدن الجزائر الواقعة على البحر على شكل مدرج كل شارع يعلو مابعده بنحو عشرة أمتار أو عشرين متراً وبأعلاها القصبة أو القلعة



الجزائر

لا يمكن للسائح أن يرى هذه المدينة بدون أن يتذكر ماضيها الفخيم وتاريخها المفعم بجليل الاعمال والحوادث الجسام . هذه المدينة التي كانت الى آخر الثلث الاول من هذا القرن عروس البحر المتوسط بل سيدته ومالكته بدونانمها الرزبزة وسفنها القوية وتجارتها الواسعة ونفوذها المبسوط على الجزء الغربي من ذلك البحر العظيم الذي رأى من تقلبات الحوادث مالم يره غيره من البحار . هذه المدينة التي رضخت لسلطانها جميع الدول الاوروبية وأدت لها الجزية صاغرة لتكون آمنة على تجارتها من أن تعبث بها أيدي القرصان . هذه المدينة التي كان ثغرها كباقي ثغور القطر الجزائري يموج بالسفن الحربية والتجارية مع جميع الدول والامصار . ثم يتذكر القادم كل ذلك كما يتذكر ما آل اليه أمرها بعد أن فتحها الفرنساويون في سنة ١٨٣٠ ميلادية لأوهى الاسباب مغتنمين فرصة اشتغال الدولة العلية العثمانية صاحبة ذلك القطر بلا نزاع بمحاربة محمد علي باشا في بلاد الشام وعدم وجود الجيوش المدربة لديها بعد تدمير الانكشارية سنة ١٨٢٨ ميلادية وتدمير أساطيلها ظلماً وعدواناً في واقعة «ناورين» التي ستبقى مدى الدهر وصمة في جبين التاريخ الاوروبي . لاشك قد انتهزت فرنسا كل هذه الفرص لفتح القطر الجزائري وربما كانت توسوس الى محمد علي باشا بمحاربة الدولة العلية وتساعده على فتح وامتلاك بلاد الشام لتشغل الدولة العلية في هاتيك الاقطار ويخلو لها الجو في بر الجزائر . ولا شك أن بتر القطر الجزائري من جسم الدولة العلية

الاسلامية نتيجة من نتائج تهور محمد على باشا في محاربة الدولة وطموحه الى الخلافة الاسلامية التي كان يمنيه بها الفرنساويون

فتح الفرنساويون المدينة على غرة وأمضوا مع حسين داى آخر ولاتها عهداً يقضي باحترام الدين الاسلامي وعدم التعرض للقوم في اقامة شعائر دينهم وباحترام الجوامع والزوايا الى غير ذلك من الشروط . ثم أول عمل أتوه في البلاد أن صادروا الجوامع في أوقافها كما صادروا أوقاف الحرمين الشريفين بحجة ان غلة هذه الأوقاف تصرف خارج البلاد فهي خسارة محضة عليها . وهدموا كثيراً من الجوامع أو حولوها الى كنائس ثم أخلوا بالعهد في جملة مسائل أخرى

كان بهذه المدينة أربعة عشر مسجداً جامعاً تقام فيها الخطبة فلم يبق منها الا أربعة : اثنان بالجزء السفلى وهما الجامع الكبير بميدان الجمهورية وجامع المالكية بشارع البحرية . واثنان بالجزء العلوى . وهو عدد غير كاف بالنسبة لعدد السكان حيث يبلغ نحو ثلاثين ألفاً من المسلمين . والائمة في اثنين منهما حنفيو المذهب وفي الآخرين مالكية . ولا يوجد أئمة حنفية في غير مدينة الجزائر كما لا يوجد مفتى حنفى الا فيها وذلك لان بها كثيراً من أولاد الاتراك وكلهم على مذهب أبي حنيفة النعمان

كان عدد سكان المدينة في أواخر القرن الثامن عشر يقرب من مائتى ألف نسمة وكان يزيد عن ذلك أيام عزها وهو الآن لا يزيد عن مائة وخمسين ألفاً منهم نحو الخمس فقط من المسلمين وكلهم يسكنون في الجزء العلوى الا القليل في الضواحي وباقي سكانها من الفرنساويين والاسبان واليهود وغيرهم

بمجرد وصولي الى الفندق سألت عن ديوان الحاكم العام لأقابل جناب

المسيو لوسياني وبعد ان استرحت قليلا قصدت دار الحكومة فأخبرت ان جناب المسيو لوسياني يقيم في فصل الصيف في سراى الصيف بجهة مصطفى فتوجهت اليه بعد الظهر وأرسلت اليه بطاقة زيارتي وجواب المسيو موليراس مع حاجبه . وبعد قليل دعيت لمقابلته فأحسن مقابلتي وحياني أحسن تحية فحييته بمثلها أو بأحسن منها حسب مايأمر به شرعنا الشريف ثم أخذنا نتجاذب الحديث بخصوص الشؤون الاستعمارية وسياسة الدول في الاستعمار وفي تفضيل أيها على الاخرى . ثم سألني عن رأيي في حالة الجزائر فأجبته بأني وصلتها اليوم فقط وما رأيته في وهران وتلمسان لايكفي ان أبني عليه حكماً فطلب مني ان أقابله قبل سفري لاجل ان أبدي له رأيي في ذلك فأجبته الى طلبه وقبل الانصراف طلبت منه ان يتفضل باعطائي الرسائل التي طبعت على حالة الجزائر بمناسبة معرض سنة ١٩٠٠ العام (وكان قد أطلعني عليها المسيو موليراس وأخبرني انها لاتباع بل تعطى مجاناً من ديوان الحاكم العام) فوعدني بأن يجمع لي منها ماتيسر له جمعه بما انها أصبحت نادرة فشكرته وانصرفت

أما الرجل فتضلع في اللغة العربية وعلومها وهو يشتغل على الخصوص بعلم التوحيد وترجم رسالة السنوسي في التوحيد وترجم عدة رسائل في المنطق الا انه لايتكلم إلا عربية البلاد الاعجمية ولذلك كانت محاوراتنا بالفرنساوية . وهو في غاية الادب والكمال ومحبوب لدى المسلمين وعلمائهم لاجتهاده دائماً في تطييب خاطرهم وقضاء حاجاتهم وتخفيف صرامة القوانين المسنونة لمعاملة العرب على قدر ماتسمح به شؤون وظيفته

وبعد ذلك قابلت حضرات امام الجامع الحنفي وحضرة مفتي الحنفية

سيدي محمد بوقندوره وله ديوان صغير داخل الجامع . وحضرة مفتي المالكية وكثيراً من التجار والاعيان

وممن تعرفت بهم من أفاضل القوم بواسطة سيدي علي با الحداد الكمال محمد بن مصطفى المحرر بادارة الجريدة الرسمية المسماة (المبشر) وهو شاب لا يبلغ الخامسة والثلاثين عالم بالعلوم العربية لدرجة لا يجاريه فيها غيره من علماء الجزائر ولذلك كلف بالتدريس في الجامع الكبير وله اطلاع على العلوم المصرية الا أنه لم يتعلم الفرنساوية مع معاشرته للفرنساويين في كل وقت وآن . وله شغف زائد بمطالعة الجرائد العربية خصوصاً المصرية منها وكلها ترسل لادارة المبشر مبادلة وبمطالعة كل مايطبع بمصر من الكتب القديمة والتآليف الحديثة وقد وجدت بخزانة كتبه مطبوعات شركة طبع الكتب العربية وما كتب على مسئلة الحجاب وتربية المرأة وله في هذه المسألة رسالة صغيرة اسمها الاكتراث في حقوق الاناث وكان قد أهدى منها نسخة لادارة الموسوعات فنشرت منها بعض الفصول

أهم جوامع مدينة الجزائر الجامع الكبير القائم في وسط ميدان الجمهورية وهو للحنفية وبه منبر عظيم جداً لم تر عيني أحسن منه لانه من الرخام المفرغ وكان في الاصل بجامع يسمى جامع السيدة هدمه الفرنساويون عند انشاء هذا الميدان وهذا الجامع يشبه في عمارته جامع القلعة بمصر المدفون فيه ساكن الجنان محمد علي باشا الا انه أصغر منه بكثير وأقل منه ارتفاعاً وقد حضرت فيه صلاة الجمعة يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٠١ وسمعت الخطبة الا أن كيفية القاء الخطبة تختلف عما هو متبع عندنا من حيث ترتيب الدعاء والحديث . والخطيب يلقي خطبته بترنم غير مألوف لدينا .

ومما أدهشني وسرني وشرح صدري وقت الصلاة وجود نحو عشرة من البحارة الروسيين يؤدون صلاة الجمعة بكل خشوع لابسين قبعاتهم البحرية ومن بينهم واحد كان مستحضراً معه طربوشاً تركياً فلما دخل المسجد خلع قبعته ولبس الطربوش وبعد الصلاة اقتربت منهم وسألتهم بالتركية عن بلدهم فأخبروني ان بعضهم من بلاد قفقاسيا والبعض من أوفه وقزان وانهم بحارة بباخوة حربية وصلت المينا يوم الخميس المنصرم فأرادوا انتهاز فرصة وجودهم في بلد اسلامية لاداء فريضة الصلاة الا أنهم كانوا يستغربون كثيراً ارسال أغلب الجزائريين لايديهم وقت الصلاة فأفهمتهم ان هذه الطريقة هي المتبعة لدى المالكية

ويلي هذا الجامع في الاهمية الجامع المالكي وله على الشارع واجهة لطيفة بأعمدة من الرخام أخذت من الجوامع التى هدمت لتوسيع بعض الشوارع . وبأعلى المدينة ضريح سيدى عبد الرحمن الثعالبي في وسط مقبرة قديمة بها قبور كثير من الصالحين وأمراء الجزائر المسلمين وعلى أغلب القبور ألواح الرخام عليها الآيات القرآنية بخط جميل من المعروف لدينا (بالثلث) على القاعدة التركية . وبداخل المقصورة قبر مصطفى باشا حاكم الجزائر وغيره وقد وجدت مكتوباً على بعض القبور على لوح من الرخام هذه الابيات فآثرت نقلها لما فيها من المعاني الرقيقة

الموت باب وكل الناس داخله ... ياليت شعرى أبعد الباب ما الدار
الدار دار نعيم ان عملت بما ... يرضى الاله وان خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما ... فاختر لنفسك أى الدار تختار
ما للعبيد سوى الفردوس منزلة ... وان هفى هفوة فالرب غفار

وهو جامع صغير لكن به من ألواح القاشاني القديم مالم أر مثله في غيره من الجوامع . وأهم مابه من هذا النوع ألواح زرقاء تكوّن شبه ازار يحيط بالقبة من الداخل وعليها بعض أبيات من قصيدة البردة بقلم جميل باللون الابيض

وقد منع الدفن في هذه المقبرة من مدة وللقوم اعتقاد كبير في صاحب هذا الضريح فلا يخلو من مرضى يقضون فيه الوقت طلباً للشفاء من غير بابه . وناظر هذا الضريح شيخ جليل عالم متفقه لديه خزانة كتب نفيسة وباع في النظم والنثر وله قصائد جليلة على ما أخبرت

وبالمدينة كنيسة كبرى كانت جامعا تحولت الى معبد مسيحي كما حول غيرها وقد وجدت كذلك بأعلى المدينة عند باب القصبة جامعاً قديماً كان اسمه جامع « حسين باى » تحول أيضاً الى كنيسة ولما أردت الدخول اليها لم يقبل مرافقي من كان معي من الجزائريين لشدة تأثره وغمه من هذا الحال

أما من حيث المباني فالاحياء الافرنجية لاتمتاز عن غيرها في باقي البلاد الاوروبية والاحياء الوطنية بأعلى المدينة لم يصل اليها التنظيم لغاية الآن بل يظهر لى أنها لم تزل على حالتها الاصلية فان أغلب حاراتها ضيقة لاتزيد عن مترين أو ثلاثة وربما لم تصل الى هذا الاتساع وكلها فى صعود وهبوط وأغلبها على هيئة درج لشدة الانحدار وهى مبلطة تحتها المجاري لتصريف الامطار

وقد دعاني لتناول العشاء بمنزله أحد تجار المدينة المسلمين ودعى معي بعض التجار والاعيان فصعدنا الى داره فى نحو الساعة الثامنة مساء فوجدتها من حيث الترتيب والنظام كالدور التي زرتها ببلاد الاندلس وغيرها من مدن الغرب ووجدت بها كثيراً من ألواح القاشاني القديمة ومما راق فى عيني

بها ألواح قاشانية مثبتة في جدران قاعة الاستقبال وبها البسملة وبعض آيات قرآنيـة أو أحاديث نبوية وهي من صنعة بعض الوطنيين الذين حافظوا على هذه الصناعة القديمة

وكانت المائدة وألوان الطعام على حسب الطريقة العربية فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث أثناء الطعام فيما يناسب المقام ثم شربنا القهوة والشاي المعطر بورق النعناع الاخضر وانصرفنا في العاشرة بعـد أن شكرت صاحب الدار على حسن ضيافته وكرمه الحاتمي كما شكرت اخوانه على حسن استقبالهم لهذا العاجز . واحتفالهم به

وبالمدينـة عدة شوارع متسعة موازية للبحر يعلو بعضها بعضاً ويتفرع من آخرها شارع عظيم يصعد على شكل حلزوني الى أعلى المدينة والتراموای الـكهربائی يسـير بأغلب شوارعها الجديدة ويصـل الى باب القصـبة بأعلى المدينة كما يصل كذلك الى ضواحيها وأرباضها فهو رابط لاجزاء المدينـة القريبة والبعيدة

أهم مباني المدينة سراي الداي حسين باشا آخر ولاة الجزائر وهي كائنة بشارع مصطفى ويسكنها الآن حاكم الجزائر في فصـل الصيف ويسـمونها سراي الصيف وهي متسعة في غاية النظام ولها بستان جميل يشرف منه الانسان على البحر والميناء وما فيها من المراكب وعلى جزء عظيم من المدينة . وبها من أنواع القاشاني وأعمدة الرخام شيء كثير وترتيبها من الداخل لا يختلف عن الدور الاندلسـية من حيث وجود الفناء في وسطها واحاطة الغرف به من الجهات الاربع وقد زرتها عند توجهي لمقابلة المسيو لوسياني يوم وصولي الى المدينة

وقد زرته قبل مبارحتي لها فتلطف وأعطاني التقارير الرسمية عن حالة الجزائر التي كنت طلبتها منه في زيارتي الاولى ثم سألني عن رأيي في حالة المسلمين في الجزائر فشرحته له باختصار ثم أخبرته بأني سأطالع ماتكرم باعطائي من التقارير والاوراق ثم أسطر رأيي في رحلة سأهديه نسخة منها وبعد محادثة استمرت نحو ساعة ودعته وانصرفت فرافقني الى باب الفناء وودعني بكل لطف كما هي عادة وطبع كرام الفرنسويين

ثم دعاني ظريف ممن رسخت محبتهم في قلبي الى داره وترك لي حرية اختيار ألوان الطعام فقبلت الدعوة واقترحت عليه ما اقترحت وتوجهت الى داره في الليلة التالية مع بعض الرفاق فوجدناه قد وفى بالشرط وقام بما تعهد به فأكانا كفايتنا وصرفنا الوقت في أنس وانشراح وكانت تلك الليلة آخر ليالي اقامتي بالجزائر فودعت الاخوان وانصرفت الى الفندق لاستريح باقي الليل وأسافر في الصباح الى فرنسا

وبالاختصار فقد لاقيت من اخواني المسلمين بطنجة وباقليم الجزائر من الكرم وحسن المقابلة ماجعلني الهج بشكرهم والثناء عليهم بكل لسان وكنت أتمنى لو كان لي لسان شوقي شاعر العصر أو البتنوني صاحب رحلة الصيف لاقوم بواجب شكرانهم على ما تفضلوا به نحوي من كرم الوفادة وحسن الاستقبال ولكن عجزي في هذا المضمار لايمنعني من القيام بهذا الواجب ان لم يكن بالقلم واللسان فبالقلب والوجدان



﴿ الحرية الشخصية في الجزائر ﴾

يعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع بل من حرية السفر والانتقال وحرية مطالعة الكتب والجرائد . ثم يصعب على الذي يعرف حب الفرنساويين للحرية والمساواة ويرى هذه الالفاظ السامية منقوشة على أبواب جميع المصالح والادارات الأميرية أن يصدق ذلك ولكن من يتكلف مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق ان ماهو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات وان كان مباحاً للفرنساويين أو المتفرنسين . فلا يجوز لهم ان يؤلفوا أى جمعية ولو لفتح المدارس ونشر التعليم أو لمجرد فعل الخير واسداء المعروف الا باذن مخصوص . وهذا الاذن لا يمنح مطلقاً كما لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة . فلا يوجد فى جميع اقليم الجزائر الا جريدة المبشر وهي جريدة رسمية تنشر الأوامر وبعض الفصول فى بيان فضل فرنسا على العرب والحض على التعلق بالولاء لها وقد منعت عنهم الجرائد العربية وزاد التشديد في منعها كلها بعد حادثة (مرغريت) التي هولت جرائد فرنسا فيها واتخذتها الحكومة سبباً لتشديد المراقبة والتضييق على العرب . فلم أجد فى جميع مدينة الجزائر نسخة من اللواء ولا من المؤيد مع ان المشتركين فيهما كثيرون ولا تصل هذه الجرائد الا لأدارة المبشر مبادلة . وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض أعدادها من الادارة فتصل أخبار الاسلام والمسلمين الى اخوانهم الجزائريين وأخبرت

انه أثناء حرب اليونان مع الدولة العلية منعت نفس الجرائد الفرنساوية التي كانت تنشر أخبار انتصار العساكر الاسلامية على الاروام الا لبعض كبار الافرنج والموظفين . الا أن ذلك المنع والتضييق لم يمنع من وصول الاخبار السارة اليهم في خطابات خصوصية

ولما أرسلت الىّ الجرائد المصرية أثناء اقامتي بمدينة الجزائر حجزتها ادارة البوسطة وأرسلت لي جميع الجوابات فقصدت المسيو ميرانت رئيس تحرير جريدة المبشر وطلبت منه أن يكتب للبوسطة بتوصيل جرائدي الىّ أو بارسالها بعنواني الى باريس لاستلمها حين عودتي اليها فأرسلت الىّ في اليوم الثاني بطريقة استثنائية

هذا ومن الغريب فى بلاد الجزائر انه لايجوز للعربي ان يسافر خارج المركز الذى يقيم في دائرته الا باذن من البوليس يبين له فيه الجهة التي يقصد الذهاب اليها والمدة التي يمكنه التغيب فيها عن قريته أو مدينته وعليه أن يتوجه لمركز البوليس في الجهة التي يقصدها بمجرد وصوله اليها كى يعلم له على الجواز ولو خالف هذا النظام عوقب بعقوبة المخالفات أو الجنح على حسب الظروف والاحوال . نعم أن البوليس لم يشدد في تنفيذ هذا القانون لكنه يتمسك به بكل صرامة عند حدوث أقل أمر تظن الحكومة انه يوجب تشويش الافكار كما حصل أخيراً عند قطع العلاقات بين فرنسا والدولة العلية وسفر المسيو كونستان من الاستانة فان الحكومة الجزائرية آنست من الاهالي مجرد الاشتغال بهذا الحادث البسيط فضبطت كل من وجد خارج بلدته بلا تصريح

والاغرب من جميع ذلك بل الذي لايمكن وقوعه من أكثر الأمم

احتراماً للقانون وتمسكا بالعدالة انه يجوز لجهات الادارة ان تسجن أى عربي مهما كانت مكانته ومنزلته بين قومه بمجرد اشتباهها في سلوكه أو في أمانته واخلاصه لها حتى بمجرد الظن بان وجوده مطلق السراح مضر بالامن العام. وكثيراً ماشوهد أناس حكمت المحاكم الفرنساوية ببراءتهم أو قرر قاضى التحقيق (الفرنساوى) بأن لا وجه لاقامة الدعوى ضدهم يزجون فى السجون ويكبلون بالحديد بأوامر ادارية بدعوى المحافظة على الامن العام . وقد طالعت فى جريدة (الرسالة الجزائرية) « Depêche Algérienne » الصادرة بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٩٠١ خبراً بسيطاً في محلياتها هذه ترجمته :

« بأمر جناب الحاكم العام سيصير سجن المدعو محمد بن أبي القاسم في السجن العسكرى الكائن ببلدة بو خنافس بمقاطعة وهران . ومحمد ابو القاسم هذا هو ذلك الشقى الذى وجهت اليه الشبه القوية بقتل المسيو ميج « Mège » ولما لم تجد العدالة ضده غير أدلة أدبية غير كافية لادانته أصدر قاضي التحقيق أمره بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى ضده ولكن بما انه من الاشقياء المضرين فقد أصدرت السلطة الادارية أمرها السابق ذكره مراعاة للأمن العام »

فبمثل هذه الاجرا آت الاستبدادية تريد الحكومة الجزائرية القاء الرعب فى قلوب الاهالي الا أنها لاتبذر الا الكراهة لها والبغضاء لحكامها ولا تحصد فى المستقبل الا القيام عليها والثورة على حكامها عند سنوح أقل حادث فى الخارج يضطرها لسحب جانب من جيشها

لقد مضى على فتح فرنسا للاقليم الجزائرى سبعون عاماً وجيشها للآن لاينقص عن خمسين الف محارب يكلفها ٥٧ مليوناً من الفرنكات سنوياً وما

ذلك الا لتخوفها من الاهالي وعدم اطمئنانها من جانبهم ولكن لايمكنها استمالتهم بهذا التضييق وتلك المعاملة المخالفة لقوانين العدالة وقواعد الانصاف والحالة الحاضرة بالجزائر برهان ساطع ودليل قاطع على تأخر الفرنساويين فى ميدان الاستعمار وعدم اقتدارهم على النجاح في هذا الطريق الوعر والمسلك الصعب

﴿ التعليم والمدارس والجزائر ﴾

كانت ربوع العلم آهلة بالطلاب وجوامع القطر الجزائرى ملآى بالمعلمين والمتعلمين ودور الكتب عامرة بالمؤلفات والمطالعين . واشتهر من بين أهل الجزائر كثير من الكتبة والمؤلفين الى أن أخذت هذه الحال تتبدل فى أوائل القرن الماضى (التاسع عشر) وكان الفتح الفرنساوى الضربة القاضية على العلم وأهله بسبب اشتغال جميع الاهالى بمحاربة المغيرين على بلادهم والدفاع عن ديارهم حقبة من الزمان وما أعقب تلك المقاومة الشديدة من مصادرة الحكومة الفاتحة لأملاك أغلب العائلات الكبيرة عقابا لها على دفاعها عن وطنها ومهاجرة الكثير من علمائها ومثريها الى البلاد الاسلاميه الاخرى ووضع الحكومة يدها على جميع الاوقاف الخيرية بلا استثناء بما فيها المحبوسة على الجوامع والمدرسين والطلبة مقابل ترتيب مبلغ زهيد فى ميزانيتها لما بقى من الجوامع بعد التى حولت كنائس أو هدمت لاصلاح طريق أو بناء قلعة أو استعملت ثكنة للجند أو غير ذلك فأصبحت البلاد ولم يبق فيها من المدرسين

بالجوامع الا ما يعد على الاصابع وقل الطالب والمطلوب وهجرت ربوع العلم وخربت دور الكتب وصارت الديار مرتعا للجهل والجهلاء وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى وتطرقت الى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب فى العواصم مثل وهران والجزائر وقسنطينه وعنابه وغيرها من السواحل والثغور

فالتعليم الديني لا وجود له تقريبا ولولا من يتكبد مشقة طلب العلم فى جامعنا الازهر لاصبح نسياً منسياً . نعم انه يوجد بعض نفر تضلعوا فى علوم الدين مثل حضرة الفاضل سيدى شعيب بن عبد الله قاضى تلمسان والكمال محمد بن مصطفى بالجزائر وغيرهما من الافاضل ولكن ليس بهذا العدد القليل يحفظ سياج العلم وينمو غراسه

أما ما اتفق على تسميته «بالتعليم المصرى» فلا وجود له بالنسبة للمسلمين بالمرة . نعم يوجد بالقطار الجزائرى مئات من المدارس الابتدائية الفرنساوية على طراز مدارس فرنسا لكنها لاولاد الفرنساويين . ولا تفيد من يدخلها من العرب لعدم تعليم اللغة العربية بها ولقد أنشأت الحكومة من عهد ليس ببعيد ثلاث مدارس لتخريج عدول وقضاة للمحاكم الشرعية احداها بتلمسان والثانية بالجزائر والثالثة بقسنطينه ومدة التدريس بها أربع سنوات وبمدرسة الجزائر قسم عال يقضى به الطالب سنتين ليتحصل على الشهادة النهائية . لكن يشترط فى من يطلب الدخول فيها ان يكون حائزاً على شهادة الدراسة الابتدائية الفرنساوية وقد بينا ان لا وجود للغة العربية بالمدارس الفرنساوية الابتدائية بل ليست لغة البلاد من المواد اللازمة للحصول على الشهادة المذكورة ولذلك ترى الطالب يدخل الى احدى تلك المدارس الثلاث وهو لايعرف شيأ من

لغته فيضطر لصرف جزء عظيم فى تعلمها ولا يجد لديه الوقت الكافى لمزاولة العلوم الشرعية التى سيشتغل بها فى المستقبل فيتخرج الطالب منها عالما باللغة الفرنساوية وآدابها ولا يحسن لغته الاصلية ولا العلوم الشرعية فيكون ضرره فى القضاء الشرعى أكثر من نفعه . وقد تعرفت ببعض هؤلاء القضاة والعدول (المودة) وتحققت ماقدمت من محادثتهم ومع كل ذلك فالتعليم حتى فى القسم العالى من مدرسة الجزائر لايعادل التعليم بمدرسه المعلمين بالناصرية بعد ان حورت بروجراماتها فى العهد الاخير . وفى هذا البيان الكفاية لمعرفة درجة عالمية واستعداد القضاة المتخرجين من تلك المدارس

وقد انتقد هذا النظام المسيو ادمون دوتو فى رسالته التى نشرها فى سنة ١٩٠٠ لتعرض بمعرض باريس ضمن مجموعات المستعمرات حيث قال بالصحيفة ١٢٩ وما بعدها ما ملخصه :

ان التعليم فى مدارس الجزائر الثلاث قسمان الاول فرنساوى ويشمل القانون والتاريخ والجغرافيا والعلوم وغيرها ويدرس بمعرفة مدرسين من الفرنساويين والثانى عربي ويشمل التوحيد والشريعة الغراء والتفسير وغيره ويعطى بواسطة مدرسين من الوطنيين ولا يخفى ضرر هذه الطريقة التى اضطرت الحكومة لاتباعها لتكوين موظفين يكون لهم على أهل دينهم النفوذ الكافى ويؤدون للسلطة الفرنساوية ماتنتظره منهم من الخدم اما اضرارها فكثيرة منها ان مواد التعليم كثيرة جداً حتى ان التلميذ لايتعدى درجة فى العالمية أقل من المتوسطة ولان هذا التعليم المزدوج يعطى بكيفيتين مختلفتين لاتشابه ولا ارتباط بينهما فضلا عن انه لا يوجد لدى الطالب الاستعداد الكافى لتأدية مايؤهل له من الوظائف. ولذلك فيتحتم ايجاد طريقة لتقليل مواد التعليم وتوحيد طريقته . .

ولا يمكن قبول الطالب باحداها الا اذا كان حائزاً لشهادة الدراسة الابتدائية الفرنساوية . وضرر هذه الطريقة ظاهر لان الطالب لايخرج عن احدى حالتين الاولى أن يكون متخرجاً من المدارس الفرنساوية فلا يحسن العربية ولا يتمكن من اتقانها مدة الدراسة وأما أن يكون من المتعلمين بالجوامع والزوايا فلا يحسن الفرنساوية ولا ينجح في امتحان الشهادة الابتدائية الا بشق الانفس ولذلك فادارة هذه المدارس تقسم التلامذة الى صنفين صنف يشمل الاقوياء فى العربية وصنف يشمل الاقوياء فى الفرنساوية ولا يخفى ما فى ذلك من المشقة على المدرسين »

فيرى القارئ مما سبق أن الحكومة الجزائرية تسعى وراء ايجاد موظفين فى الوظائف متضلعين فى اللغة الفرنساوية والعلوم العصرية ولا يهمها أن يكونوا عالمين حق العلم بعلوم الشرع الشريف واللغة العربية وهي طريقة لا يخفى ضررها وتكون نتيجتها بعد قليل من السنين عدم وجود قضاة شرعيين كفوء لوظائفهم . وهو عين ما تسعى اليه الحكومة هناك اذ تتوصل بذلك الى تعيين قضاة شرعيين من الفرنساويين أو لابطال ما بقى للقضاء الشرعي من الاختصاص وإحالة ما يختص بالمسائل الشخصية على المحاكم الفرنساوية كما هى الحالة في فرنسا .

هذا ويوجد بالجزائر مدرسة للعلوم الادبية العالية كل طلبتها من الفرنساويين والقصد منها تخريج فئة منهم قادرة على فهم الكتب العربية وترجمة بعضها الى لغتهم وقد ترجموا عدة كتب فى الفقه والنحو وخلافه ولا فائدة لمسلمى الجزائر من هذه المدرسة بل ربما كان ضررها أكثر من نفعها وبالاختصار فحالة التعليم فى القطر الجزائري سيئة جداً ولو استمر الحال

على هذا المنوال حلت اللغة الفرنساوية محل العربية فى جميع المعاملات بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن فلا الحكومة تسعى فى حفظها ولا تدع الاهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس لمنعها اى اجتماع خوفاً من أن تشتغل جمعياتهم بالامور السياسية . وهي حالة تخالف ما عرف به الفرنساويون من انهم رجال العلم والنور والحرية وناشرو ألوية العرفان

﴿ العودة الى الوطن العزيز ﴾

بعد ان أقمت فى مدينة الجزائر خمسة أيام جمعت فيها ما أمكن جمعه من المعلومات عن حالة المسلمين فيها أردت العودة الى البلاد عن طريق مرسليا بعد قضاء بضع أيام فى باريس وڤيشي للاستراحة من عناء هذه الرحلة الطويلة فسافرت من الجزائر من ظهر يوم الاحد ١١ أغسطس سنة ١٩٠١ على الباخرة إسلي بعد ان ودعت الاخوان ووعدتهم بالعودة اليهم لو سمحت لي الظروف شاكراً لهم حسن استقبالهم لي واحتفالهم بي . أما ما جمعته من المعلومات عن حالة البلاد فلا يجيز نطاق هذه المجالة نشره ولذلك اكتفيت بما نشر الآن وفيه ما يدل على سوء حال هذه الأمة الاسلامية التعيسة وما يتهدد باقي جهات الاسلام من التعصب الاروبي الذميم وانى احض اخوانى الذين تسمح لهم أوقاتهم بالسفر الى خارج القطر أن لا يقصروا أسفارهم على باريس وسويسرا بل يجعلوا لبلاد الاسلام نصيباً مما يصرفونه من الوقت خارج القطر المصرى

ليروا باعينهم كيف تعامل أوروبا الأمم التى أوقعها سوء الطالع تحت حكمها فلا يغتروا بما تكتبه جرائدها عنها من المدح والاطرآء وحبذا لو قصد بعضهم بلاد الهند على الاخص ليشاهدوا ما آلت اليها حالهم من الفقر المميت والجهل المتناهى فى ظل العلم الانكليزي وليصفوا ما يشاهدونه لاخوانهم حتى لا تؤثر عليهم تمويهات الجرائد الخادمة للاحتلال

هذا وقد عدت الى الاسكندرية فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠١ بعد ان قضيت فى باريس عشرة أيام ومثلها فى ڤيشى لم أتعرض فى رحلتى هذه لوصف مدينة باريس حيث قدسبقنى الكثير الى ذلك . اما ڤيشى فقد أجاد حضرة صديقى الفاضل علي بك أبو الفتوح فى وصفها ووصف ضواحيها الجميلة فى رحلته اليها سنة ١٩٠٠ وعليه فانى أختم رسالتى هذه بالتضرع الى موجد الكائنات وبارئ النسمات بان يوفقنى الى خدمة الاهل والوطن امين



صحيفة — فهرست رحلة سنة ١٩٠١

١ من مصر الى مصر
٥ العزم على زيارة مراكش والجزائر
٧ مدينة برسلونه
٩ مصارعة الثيران
١٢ سرقطة
١٤ مدريد
١٦ مدينة طليطلة
٢١ مدينة الاسكوريال ومكتبتها
٢٥ مدينة قرطبة وجامعها الشهير
٢٩ مدينة غرناطة
٤٠ مدينة اشبيلية
٤٥ مدينة قادس
٤٧ طنجة ومملكة مراكش
٥٤ من طنجة الى وهران
٥٨ من وهران الى تلمسان
٦١ مدينة تلمسان
٦٧ مدينة الجزائر
٧٥ الحرية الشخصية فى الجزائر
٧٨ التعليم والمدارس فى الجزائر
٨٢ العودة الى الوطن العزيز